موسوعة

الأديان

التوحيد ، الخلق ، القيم

إعداد

د . مهدي حسين البصري

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمّان

بسم الله الرحمن الرحيم

{ شرع لكم من الدين ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى أن أقيموا الدّينَ ولا تتفرقوا فيه . . }

(الشورى : ١٣)

(لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء، ما جئت لأبطل، بل لأكمل ، الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد ونقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء...) .

(متى ٥: ١٧-١٩)

الناشر

دار أسامة للنشر والتوزيع

الأردن – عمان

تلفاكس : ٤٦٤٧٤٤٧ – ص.ب : ١٤١٧٨١

الطبعة الأولى

٢٠٠١م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٧٤٥/ ٤/ ٢٠٠١)

٢٠١

بصر البصري ، مهدي حسين

موسوعة الأديـان : التوحيد ، الخـلق ، القيـم /
مهدي البصري . ـ عمان : دار أسامه ، ٢٠٠١

( ) ص

ر . أ (٧٤٥/٤/٢٠٠١)

الواصفات // الديـانـات/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من دائرة المكتبة الوطنية

الإهداء

إلـــى . .

الذين يسعون إلى التوحيد الإلهي

سعيهـم إلى التوحيد الإنساني

أهـــدي هـــذا الموضـــوع

اجتهادا في التفكير

لا اجتهادا في الدين . .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن من يستجلي منطلقات ومعالم الفكر الديني وشواهده يقف عند حقيقتين هامتين تتواصل وتلتقي عندها الرسالات الدينية:

أولهما : توحيد النظرة والموقف الإيماني وتكريسه وبلورته عند نقطة التوحيد، والوحدة في الله، وهو ما تعرضنا له في أول فصل من فصول هذا الكتاب، مستدلين فيه بأنه من خلال الموقف الشمولي من مسألة الإيمان بالله نتلمس جانباً هاماً من النسق المتكامل للفكر الرسالي المشترك بين سائر الأديان .

ثانيهما: الدعوة المشتركة لتكوين الشخصية الخيِّرة، الملتزمة بمرضاة الله، والذي يتجسد مبدئياً في منظومة "التقوى" وهو الحيّز الواسع الذي نجده في الرسالات الدينية ممثلاً بمجموعة القيم والمثل التي تؤكد على هذه الخاصية في سلوك المؤمنين، باعتبار أن مثالية السلوك الإنساني هي الاعتبار الاسمى الذي تطمح إليه الأديان كلها والتي تسير في هذا الاتجاه على جادة واحدة ولهدف معلوم، وقد استحضرنا من نصوص الشرائع الدينية أوجهاً أربعة من القيم السلوكية، أولهما :

- ☆ قيم السلوك الإيماني(الروحي)
- ☆ قيم العمل.
- ☆ قيم العلم والمعرفة .
- ☆ قيم الحكم والإدارة .

ومن الإطار الفكري – العقائدي – للأديان استوضحنا موقعها من بعض المسائل الحيوية، ومنها – خلق الكون، وخلق الإنسان، والجزاء أو معتقد الدار الآخرة، الطوفان – وهو ما تتعرض له جملة النصوص الدينية وعلى قدر متفاوت من طبيعة السرد، ما نسبتين منه معالم التوافق المبدئي بصددها، وأتبعنا ذلك بتناول المسائل التي تتوافق فيها الأديان السماوية خاصة ، كونها تنحدر من سلالة واحدة، تنتظم ضمن محور معتقدي واحد .

واستدللنا من بعض شهادات المعنيين بالتاريخ والدين ما يعزز حكم التوافق في المسار الرسالي للأديان السماوية، فيما ترى قيمتها الموضوعية، فيما أعرضنا عن الشهادة الحيّة لخاتمة ألرسالات السماوية والتي تغتني نصوصها ومنهجها بالوافر من الدلالات على وحدة المسار الديني، على أمل أن نفرد لذلك كتاباً خاصاً .

وربما يجد القارئ الكريم في بعض العناوين أو مضامين هذا الموضوع ما يتكرر في كتابات من سبقونا أو عاصرونا، وذلك أمر مألوف، لم ننكره، أو ينكره سوانا لحكمة استمرار الجهد المعرفي من الحدود التي تقوم بمجهود المجموع ومن خلاله، وقد آثرنا أن نبلغ القصد من الزاوية التي أمكننا الوقوف عنها، وقد تكون الصورة الملتقطة لمشهد واحد مختلفة الدلالة والقصد، أو أنها تأكيد لقيمة المشهد الذي يتكرر عرضه، وتصويره بأساليب وأغراض متباينة، وقد أدركت وأنا أستقي من منابع مختلفة مادة بحثي هذا قيمة التواصل الفكري، بقدر ما أدركت قيمة التواصل والتكامل في منطلقات ومعالم الفكر الرسالي الديني عامة، وفي مجمل النتائج التي حصلت مع ذلك القدر من المعاناة والمكايد التي واجهت عامة الرسل ومن والاهم، والتي كانت ثمرتها ذلك الفكر من أن يأخذ مداه في دائرة رحبة من محيط الأرض، لتواصل مسيرة الإيمان امتدادها ورسوخها على مر الأجيال، وفي وقت تستدعي الضرورة أن

تتوافق وتأتلف قنوات الفكر الديني وخطوطـــه مع بعضها ما دامــــت تســتقي مادتها من نبع واحد، وتبتغي غاية واحدة ليحل السلام والوئام على أرض بـــدل الخصام بين جماعات لم تعد تدرك من الحقيقة ما يلج جماح نفورها وخصامها.

وسأكون شاكراً وممتناً لمن يمحضني الفكرة والرأي السديد وهــو يقــرأ سطور هذا الكتاب الذي أبغيه دعوة للتوحيد الإنساني بمثل ما يكون التوحد فـــي الله علامة بارزة من علائم الشد الروحي الذي تتوافق فيه النفوس وتتسامى رقيــاً إلى السماء .

د. مهدي حسين البصري

عمان

المبحث الأول

التوحيد... والوحدة في الله ، دلالة التكامل الرسالي

☆ مفهوم التوحيد ومبتدأه.
☆ التوحيد في اليهودية .
☆ التوحيد في المسيحية .
☆ التوحيد عند الصابئة المندائيين
☆ التوحيد في الإسلام.
☆ نبوءة التوحيد في الزرادشتية
☆ الهندوسية بين تعدد الآلهة والتوحيد.
☆ البوذية: التأليـــه البشـــري .
☆ الكنفوشية: الصلاح من السماء .

التوحيد .. والوحدة في الله

دلالة التكامل الرسالي للأديان

التوحيد ... والوحدة في الله

دلالة التكامل الرسالي للأديان

فيما ينتظم التوحيد الحلقة الأخص في محيط الأديان السماوية ، فان "الوحدة في الله" تنتظم الحلقة الأكبر والأشمل ضمن محيط الأديان عامة، سواء فيها التي تقر بالإله الواحد، أو تعدد الآلهة،لكنها تنضم إلى الدائرة الإلهية من بوابة النمو الروحي، والذي يعد المطلب الحيوي للأديان مجتمعة.

وأن من الأديان غير السماوية من يعيب روافدها الروحي في القناة الأساسية للتوحيد على نحو غير مباشر، بإقرارها بوجود الإله الأعظم، الخالق، والمدبر للكون من بين آلهتها، ودخولها في حلبة السمو الروحي من ذات المعايير التي تنطلق منها الأديان السماوية، وعلى ذلك فإن بحثنا في مجال التوحيد سيكون ضمن المحيط الأكبر للوحدة في الله .

باعتباره الأفق الأكثر انسجاماً وتوافقاً في المسلسل الرسالي، والأوفق قدرة في التغلغل في المساحة الأرحب من الوسط الإنساني كما يلاحظ في عالمنا الراهن.

ومن الواضح أن السياق المبدئي للأديان السماوية منطلق من اعتبار "الله" كأصل للخلق والوجود، وترتبط بهذا المحور الحيوي مسألة الصلة بين حياة الإنسان في دنياه وآخرته، والتي تهتم بقدر منها أيضاً الأديان غير السماوية – كما سنلاحظ – لتتفرع منها جملة من المبادئ والمفاهيم التي تشكل بجملها منطلقات الفكر الديني الموحد .

ويشكل الإحاطة بمدلول التوحيد الإلهي وآفاق فهم جانب هام من توجيهات الأديان السماوية على صعيدين : الروحي ، والمادي ، ومنها نفهم مقاصد السيرة الإيمانية للإنسان في الصفحة الأولى من حياته الدنيوية والتي تتشكل منها منظومة "التقوى" والتي تعد الدائرة الروحية المشتركة لكل الأديان، والمقياس الحيوي لجزاء الآخرة فيها.

ولا بد بدءاً من تحديد مفهوم التوحيد الإلهي – والذي يشكل رغم الاختلافات الجزئية في تحديد مدلوله وأبعاده في شرائع الأديان السماوية خاصة – الركن الحيوي من أركان عقيدتها، فيما يعد مبعث التوجه نحو إقامة الكيان الروحي ضمن دائرة الرسالات السماوية مجتمعة، وسنحاول عند ذلك تحاشي الاجتهادات الفرعية في ذلك، فيما ندرك أن المطلب التوحيدي قد تجاوز – تاريخياً – مدار الأديان السماوية ليمتد إلى دوائر التعدد في الآلهة.

مفهوم التوحيد ومبدئه

يعطي المدلول اللغوي للتوحيد في العربية فكرة واضحة عن مضمونه ومحتواه، جاء في (لسان العرب) بشأن "الواحد الأحد" أن: الواحد اسم مبني ، منفرد بالذات في عدم المثل والنظر، والأحد منفرد في المعنى ، وقيل الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى، ولا يقبل الانقسام ، ولا نظير له، ولا يجمع هذين الوصفين إلا الله عز وجل، وعلى ذلك قال الأزهري: " واما اسم الله عز وجل، فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، ولا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، لأن أحد صفة من صفات الله عز وجل استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء كقولك الله واحد " (١) .

وعلى ذلك فان التوحيد يذهب إلى تقرير وحدة الذات الإلهية وانفرادها بالأحدية ، إذ تنتهي الأشياء إلى علة واحدة، كما تنتهي القواعد إلى مبدأ عام نهائي لتكون مرجعية الوجود والخلق إلى مصدر واحد هو "الله" تنتسب إليه كل صفات وخواص القدرة اللامتناهية.

وعند "ابن تيمية" أن "الإله" بمعنى المألوه المعبود الذي يستحق العبادة، ليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد هذا خص وصف الإله وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية في التوحيد، كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمي الصفاتية، إذ لم يفرقوا بين حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله، إذ كان مشركو العرب مقرين بأن الله وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ، (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) .

منوها إلى أنه ليس كل من أقر أن الله رب كل شيء وخالقه يكون عـابدا له دون سواه، فان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعونها كما يدعون الله، يصوم لها ويتنسك، ويتقرب لها... وإنما الشرك إذا أعتقد أنـها المدبرة لي، فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا... (٢) .

وتاريخيا فان هناك محاولات أو بدايات للتوحيد الإلهي قد جـرت منـذ القدم، فقد استقر الآراميون الأوائل كما يذكر على عبادة إله واحد، ولم يكونـوا يعرفون سواه، وهو الإله "حدد" مما يعني أنهم كانوا أصحـاب نزعـة التوحيـد الأوائل حيث كانت رموز الإله حدد هي الأكثر شيوعا بين رمـوز المعتقـدات الآرامية لارتباطها بأهم جوهر اعتقادي عن الآرامين وهو الإله حدد الذي يعـد المركـز الفريد للآلة الآرية(٣)، فيما عد الإله (آن) الإلـه الأول فـي الديـن السومري – هو إله السماء، وإله المدينة المسيطر على كل ما فيها– وقد أصبـح منذ فجـر التاريخ وحتى زوال سومر وتحوله إلى إله بابلي (آنـو) (٤) فيمـا استقـر رأي حمورابي بأن يجعل الإله(مردوك) الإله الأعظـم للإمبراطوريـة البابلية وسيد الآلهة أجمعين بعد أن كان عدد الآلهة في الإمبراطوريـة قـد زاد ليصل إلى خمسة وستين ألفا .

وعند الآشوريين كان (آشور) إلههم القومي، ملك الآلهة جميعـا، فـهو خالق البشرية، فيما كان أهـل الصين القدماء يعتقدون بوجود حاكم أعلى فـوق كل الأرواح وفوق كل النـاس اسمه (شانج تي) – رب الأرباب– وهـو القـوة العليا المسيطرة على العالـم، ثم (تيان) الذي يعد هو السماء، منطلقين من فكـرة أن السماء هي التي تأتيهم بالمطر والسحاب والريح، والرعود والـبرق، وبنـاء على ذلك يتعين على الناس أن يعبدوا ذلك الرب العلي الذي يعيش فـي السـماء وهو غاية في العدل إلى جانب عبادتهم لأرواح الشمس والقمر والمطر والنـار والرعود والجبال والأنهار(٥).

أما بالنسبة لقدماء المصريين يذكر أنهم قد أخـــذوا نظـــام دينـــهم عـــن نبيهم(هرمس) وقيل عن الهنود القدماء قبل هرمس لقدم أسفار الثيدا التي يرجـــع تاريخها إلى أكثر من ثلاثين ألف سنة قبل المسيح، وقد وجد في هيكل إيزيـــس مصبا لحجر نقش قديم يتضمن عبارات: (أنا كل شيء كان، وكل شيء كـــائن، وكل شيء سيكون، ومحـــال على من يفنى أن يزيل النقاب الذي تنقب به وجـــه من لا يفنى، ونقل عن العلامة ما سبيرو قوله: " ان إله المصريين الأول كـــان عالما بصيرا، لا يدرك، موجودا بنفسه، حيا بنفســـه، حاكمـــا فـــي السـموات والأرض، لا يحتويـــه شيء ، فهو أب الآباء، وأم الأمهات، لا يفنى ولا يغيـــب، ملأ الدنيا وليس له شبيه ولا حد، ويوجد في كل مكـــان، وان الديـــن الأصلـــي للمصريين بعدئذ قد هبط اليهم من آسيا وهو دين التوحيد الذي حمله لهم النبـــي إدريس وأتباعـــه "الحورشوش " قبل عصر (منيا) وأن "آتون" إله إخناتون هـــو أقدم الآلة المصرية وأولهـــا (٦).

إن كلمة (إله ، قد اشتقت من كلمة (إيل) وهو الاسم الذي كانت جميـــع الديانات السامية تدعو به آلهتها، ويعني "القوة والقدرة" وأما لفظـــة "الله" فإنـــها ناتجة.

كما يستفاد من مراجعة قواميس اللغة، عن إدخال "أل" التعريـــف علـــى كلمة "إله" لتصبح " ال إله" ثم أدعم الألف وسط الكلمة باللام التي قبلها، وتشـــديد اللام فأصبحت.

"الله" وهو الاسم الأعظم بين سائر الآلهة، فيما أصبح "الله" فـــي ســـائر الأديان السماوية يعني الإله الوحيد.

وإذا شئنا أن نسحب ذلك التصور المعتقدي حول الآلهة فـــي العصـــور السابقة للأديان المشترعة سماويا . كمـــا نود تسميتها – وللفترات الواقعـــة مـــا بينها وبعدها – إلى الحالة الحاضرة كما نود تسميتها– فإننا سنقف عنـــد حقيقـــة

كون الأديان جميعا – سواء منها الموحدة أو متعددة الآلهة – تنتسب المنظومة الإلهية، مع فارق الصلة المباشرة أو غير المباشرة بالله، وإن كان البعض – جريا مع المألوف السائد – يطرح العديد من هذه الأديان خارج المظلة السماوية على خلاف ما ترسمه النظرة المتمعنة في نصوص عقائدها من صور تتجلى فيها علاقتها الحميمة بالسماء، وإذا ما أخذ بالمعنى المجازي لعبارة "السماء" ودلالتها للوجود الفوقي الذي يتسامى على الوجود الأرضي الذي كان محط اهتمام الإنسان في مراحل تطور الإدراك الحسي، عنده للطبيعة والوجود الكوني، وانتبهنا بعناية إلى مضامين النصوص المعتقدية للأديان، فإننا سنقف عند حقيقة كون التعلق بالسماء قد ضمها جميعا، وأن وجود الله، أو الإله، منفصلا أو متوجا على رأس النظام الثيولوجي القديم.

وكما يذكر – ليدل بالفعل علة وجود عقيدتين متلاصقتين، أحدهما يسود فيه تعدد الآلهة، والأخرى تؤمن بإله واحد، وكان التوحيد الغنوصي(العرفاني) مفتاحا لحل هذه المشكلة، فالله يفيض إلى عوالم وعقول ونفوس حتى يصل إلى الإنسان، وقد وضع الله لاحقا في منظومة إلهية متعددة تحولت إلى ملائكة نورية وبقي الله يطل عليها من عل(٧)، ولا زلت أتذكر من حديث أحد المتنورين من الهندوس معي أثناء إقامتي في الهند قبل أكثر من عقد من الزمان ما نوه به من أن ثمة ما يربط بين عقيدته والإسلام قائلا : " انتم المسلمون عندكم "الله" ونحن عندنا الـ "بكوان" ، وأنا إذ أتمعن اليوم في طائفة من نصوصهم الدينية فاني لأجد حضور الله بالاسم والمضمون في المطلب الروحي منها وبما يتوافق مع المطالب الروحية للأديان المشترعة سماويا، فيما هي لا تتوافق في طبيعة الطقوس المعتقدية لاختلافها مصدريا .

التوحيد في اليهودية

إذا ما رجعنا إلى العهد القديم من الكتاب المقدس نجد في نصوصه وضوحا كاملا لطبيعة الله وصفاته فـ "إيل – إيلوهيم " وكما يرد في معجم اللاهوت الكتابي: كان معروفا ومعبودا خارج إسرائيل لجنس يدل على الألوهية تقريبا ، وكاسم علم هو اسم إله عظيم يظهر أنه كان الإله الأعلى في القسم الغربي من هذه المنطقة خاصة في فينيقيا، وكنعان .

وأن آباء الأسباط كانوا يسمون إلههم"إيل" وينعتونه بصفات شتى: "الإله العلي" (تكوين ١٤ : ٢٢) ، الرائي (١٦ :١٣) ، الله القدير (١٧: ٣٥، ١١ : ٤٨) ، الإله السرمدي (٢١ :٣٣) وان التوحيد الإسرائيلي لم يكن ثمرة تفكير فلسفي، أو توحيدا سياسيا أو تطورا دينيا ، إنما هو تأكيد إيماني، وأن موسى لم يكن بوسعه أن يكتشف بأن "يهوه" هو الإله الحقيقي لو لم يكن قد عرف "الله" من قبل، أو ما تميز باسم "ايل – إيلوهيم" ، مع كل ما يوحي به هذا الاسم من ذكريات مثل: "إله أبيك" (خروج ٣:٦) ، إله آبائكم(خروج٣ :١٥) ، إلهكم (خروج ٦:٧) الرحيم ورؤوف (خروج ٣٤ : ٦)، وإلهك (أشيا ٤١ : ١٠) (٤٣: ٤) أو بصورة ابسط "الله" (ملوك ١٨، ٢١، ٣٦ – ٣٧)، وتنشأ بين الله واسم يهوه صلة حية وجدلية، وأنه لكي يستطيع أن يكشف عن نفسه أنه "يهوه" يعرض إلى إسرائيل نفسه كإله، ولكنه عندما يعلن أنه يهوه يكشف لنا بطريقة جديدة تماما ماهية جوهره. (٨)

ويفيد النظر في أسفار العهد القديم في إدراك مضمون الدعوة لتوحيد الله الذي غالبا ما يطلق عليه اسم "الرب" و"الله" ، وفي بضع جمل "يهوه" فيما

يفهم منه تواصل الرباط التوحيدي مع دعوة أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم، مع تخصيص الربوبية لبني إسرائيل، حيث كرس "الرب – اله مع تخصيص الروبية لبني إسرائيل، حيث كرس "الرب –اله العبرانيين –" معجزاته لموسى عليه السلام لخلاصهم من فرعون، ففي ابتداء ظهور "ملاك الرب" لموسى عند جبل حوريب ناداه الرب :

"أنا اله ابيك، اله إبراهيم، واله اسحق، واله يعقوب: اسمع يا إسرائيل، الرب اله واحد، فتحب الرب إلهك، من كل قلبك، ومن كل نفسك ، ومن كل قوتك. (الخروج:٣)

وورد في سفر التثنية ، من الوصايا .

" اعلم ان الرب إلهك، هو الإله الأمين الحافظ العهد والإحسان" .

" هو ذا الرب إله السموات وسماء السموات والأرض وكل ما فيها" .

" لا تسير وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التي من حولك ، ان نسيت الرب إلهك وذهبت وراء آلهة أخرى وعبدتها وسجدت لها اشهد عليكم أنكم تبيدون لا محالة".

وبإزاء ذلك نجد في بعض النصوص ما يفيد كون النبي موسى – عليه السلام – في بلاغاته عن الرب الفرعون إنما يأخذ دور الإله الذي يتكلم باسم الرب، فيما يأخذ أخوه هارون وهو يتلقى منه دور النبي، وهو ما يفهم من النص التالي.

"فقال الرب لموسى أنظر إني جعلتك إلها لفرعون، وهارون أخوك يكون نبيك، أنت تتكلم بكل ما آمرك، وهارون أخوك يكلم فرعون ليطلق بني إسرائيل من أرضه" (تثنية – اصحاح ٦)

وإذا ما اعتبرنا بالدلالة اللغوية لعبارتي "إله" و"نبي" كمثل ما يــرد فــي القرآن " إلهه هــواه" (٢٥ : ٤٣ ، ٤٥ : ٢٣) ونبأنــا الله (٩ : ٩٤) ، نبــئ عبادي(١٥ : ٤٩) ، تنبئون الله (١٠ :١٨) .... الخ، تفهم أن المراد هنــا ان يكون موسى رسول الله لفرعون، وهارون ينبئه عوضا عنه لما ورد من ســؤال موسى لربه ذلك .

وينوه "جاك مايلز" إلى أن قراءة الكتاب المقــدس العبــراني قــراءة متسلسلة دقيقة تكشف التعاقب والتطور في شخصية الله الرئيسية، وذلك المزيــج من اللاهوت والسيرة وأنه حين يقول اليهود في صلواتهم (مبارك أنت يــا رب، ملك الكون) يتصورون أن إله التكوين ملك، مع أن الله لا يقدم نفســه كملــك إلا لاحقا في الإصحاح السادس من سفر أشعياء.

وكلمة"لاحقا" هنا لا تعني لافي الزمن التاريخي وإنما لاحقا في الــورود وحسب ، أي لاحقا في قراءة الكتاب من البداية إلى النهاية " (٩) ، وعلى ذلــك فان الإيمان بوحدة الخالق يكون كمثل الإيمان بوحدة الخلــق.(أليــس أب واحــد لكلينا، أليس واحد خلقنا" (ملاخي٢: ١٠).

التوحيد في المسيحية

لا نجد في بشارات الكتاب المقدس (الإنجيل) شارات صريحة لمضمون التوحيد الإلهي كمثل ما يرد في العهد القديم ، فيما ترد عبارة "الله" صريحة في جملة من نصوصها، ويعود ذلك كما يبدو إلى كون الرسالة المسيحية قد بعث في وسط لا تزال العقيدة الموسوية في التوحيد قائمة وفيه ولم يكن هناك من دليل على سريان حالة الشرك في المجتمع اليهودي وقت ذاك، مع وجود بعض الممارسات التي أبعدت ذلك المجتمع عن أصول ديانته الحقة كما يرد ذلك في شكوى السيد المسيح من الفريسين والكهنة ومثل ذلك ما ورد في القران الكريم ، فيما يلاحظ ان عبارة الرب التي أطلقها الرسول موسى عليه السلام قد تأكدت على نحو واضح في جملة تقريرات السيد المسيح عليه السلام، مع إطلاق نعت "الرب" على الرب ، وهو ما يرد كثيرا على لسان السيد المسيح، معلنا في ذلك كما يشار : تجليته للرب بإعلانه القرابة القريبة بين الله وعباده، إذ جعل الله أبا لخلقه ، وجعلهم بنيه اللائذين بحماه ، فانهدمت بذلك على حد تعبير محمد فريد وجدي : الحواجز الحديدية التي كانت بين الله وخلقه"١٠".

والواضح إن عبارة "الرب" في الخطاب المسيحي إنما تقابل عبارة "الرسول" في الخطاب الإسلامي بمثل ما تقابل عبارة " الأب " عبارة" الله " أو "الإله" ففي رسالة القديس بولس الأولى إلى كنيسة كورنثوس ورد قوله : (عليكم السلام والنعمة من الله أبينا ومن الرب يسوع المسيح) "١:٣ ".

وفي رسالته الثانية:" تبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح ، الأب الرحيم " "٣:١"

(ولتكن نعمة ربنا المسيح ، ومحبة الله وشركة الروح المقدس معكم جميعا) "١٣:٢" .

وكما يفهم فان تسمية" ابن الله" هي عبارة ورثها المسيحيون عن اليهود فيما يدعون شعبهم "ابن الله" أو " شعب الله " .

ففي أحد مزامير داود "١٠٨" يرد على لسان الله مخاطب شعبه " أنت ابني ، أنا اليوم ولدتك " فيما أفضى يسوع المسيح على هذه الكلمة معنى حميما وصبغة عائليه ، فعلم تلاميذه ان يقولوا " أبا " وهي عبارة تودد ودالة كالتي يستعملها الأولاد في العائلة لينادوا والديهم البشريين "١١" .

وفي الكتاب المقدس الكثير من التعابير التي تعطي لمفهوم الأبوة دلالته الروحية التي تخالف دلالة البشرية على نحو ما نقده القران.

ففي الكتاب المقدس نقرأ: (وهذه الحياة الأبدية ،أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي ـ وحدك ـ ويسوع المسيح الذي أرسلته) "يوحنا ١٧ :٣ "(..والأب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط، ولا أبصرتم هيئته "٣٧:٥".

ومما يذكر ان عبارة" ابا" كانت تعني في الأساطير الهندية (روح طيب خلق السماوات والأرض) "١٢" فيما ترد عبارة "الرب" في القران الكريم ضمن السياق الإنساني كمثل ما ترد في السياق الإلهي، ففي قصة يوسف مع صاحبيه في السجن تجيء العبارة بمعنى" السيد "و" المالك" : " أما أحدكما فيسقي ربه خمرا " "وقال للذي ظن انه ناج منهما اذكرني عند ربك " (يوسف :٤١: ٤٢)، فيما ترد هذه العبارة وعلى نحو واسع مرادفة لعبارة " الله" و"الإله " باعتباره مالك الملك في السموات والأرض .

ويورد معجم اللاهوت الكتابي حول (أب) :

أن الأبوة هي الصفة الأساسية لله وانطلاقا من الاختبار البشري للأبـــاء والأزواج ممـــن توفر لهم الحياة العائلية وسيلة لممارسة السلطة وتحقيق الـــذات في المحبة ، وبطريقة تختلف عن الطريقة الوثنية التي تنتقل إلـــى آلهتـــها هـــذه الأمور البشريـــة، وان هذه الأبوة الروحيـــة هي التي تخصـــص بولـــس فـــي إبرازها لاهوتيا ، وقد وردت دعوة خيرقيال (أبو البشر) وهذه اللفظـــة تظـــهر الفوارق بين الله والإنسان وتذكر النبي بطبيعته الثانية ، وكذلك فإنه عندما تطلـــق عبارة " أبناء الله " في مناسبات متفرقة في العهد القديم علـــى الملائكـــة الذيـــن يكونون الحاشية الإلهية "١٣ " .

وقد أعطى بولس الرسول المدلول الواضح لذلك في قولـــه : (وليفتـــدي الذين هم في حكم الشريعة ، حتى نصيـــر نحن أبناء الله ، والدليل علـــى أنكـــم أبناؤه هو انه أرســـل روح ابنه إلى قلوبنا هاتفا: أبي، يا أبي، فما أنت بعـــــد الآن عبد ، بـــل ابن وإذا كنت ابنا فأنت وارث بفضـــل الله "(غلاطيـــة ٤: ٥ – ٧).

وبالجملة فان الفكر التوحيدي يجد تجسيده في قانون الإيمان المســـيحي : "نؤمن بإله واحد ، أب ضابط الكل، خالق السماء ما يرى وما لا يرى " – وهـــذه هي الوصية الأولى حسب قول السيد المسيح حين سأله واحد من أهل الشـــريعة عن أهم واعظم الوصايا ، فأجاب :

الوصية الأولى هي : اسمع يا إسرائيل ، الرب إلهنا هو الرب الأحـــد ، فـــأحب الرب إلهك بكل قلبك، بكل نفسك وكل فكرك، وكل قدرتك " (متـــــى ١٢: ٣٤، مرقش ١٢:٢٩") .

ومن ثنايا الكتاب المقدس يعرض الأب الدكتور جورج شحاته قنواتي "أطروحة التوحيد في الإسلام ، إذ يذكر : انه عندما يترنم المسيحيون مع صاحب المزامير " من اله غير الرب ، من صخرة سوى ألهنا " ؟ (المزامير ٣٢:١٧) يظهرون كأنهم إخوان للمسلمين الذين يشهدون " انه لا اله إلا الله" فعندنا أجمعين" الرب هو الله ليس اله سواه "(تثنية الاشتراع ٤:٥) ، لأننا نحن لا نعرف إلها نعرف ألها غيره (يهوديت٨:١٩، انه الواحد لا" هو الله أحد ، هو الله أحد، الله الصمد " كما في القرآن.

وفي كتاب المزامير (١٧: ٣٢) : " وفي القرآن " لم يكن له كفوا أحد" (الإخلاص ٣:١) ، فهو الأول والآخر " (اشعيا ٤١: ٤) ، "اني أنا الرب لا أتغير" (ملاقي٣: ٦)، " لان الله القيوم، المتين، لا يتعب ولا ينسى" . (اشعيا ٤٠ : ٢٨)، فهو السرمدي(٤ : ٢٨) (الذي يبقى وجهه إلى الأبد لانه هو الحق، والغني والحي بالحق) ، (ارميا ٢:٤) ، (قرآن ٢ : ٢٥٥) الى دهر الدهور " (رؤيا ١ : ١٨) ، اذ هو " الحي الذي لا يموت" (قرآن ٢٥ : ٢٨)، ومن قبل ولدت الجبال وانشات الأرض و المسكونة ، من الأزل إلى الأبد أنت الله".

(مزامير ٨٩ : ٢) (١٣).

تجد في الكتاب المقدس للصابئة المندائيين (كنزا ربا) مصداقا للنظرة الفلسفية العامة للفكر الديني السماوي عن الله ، إذ يرد في القسم الأول منها في ـــ صفات الله ـــ من "بوثة " (سورة التوحيد) : "ملك عالم الأنوار ، رب الحق ذو النفس الشاملة الذي لا حدود له " النور الطاهر ، والضياء العظيم الذي لا ينضب، الغفور التواب، الرحمن الرحيم ،... العزيز الحكيم ، والعليم البصير. والقادر على كل شيء " .

" رب كل عوالم النور العليا والوسطى والسفلي، ذو السيماء العظيم الموقر الذي لا يرى ولا يحد .. " " ليس له كفء بتاجه ، ولا شريك له في سلطانه ،؟ ومن اتكل عليه لا يخيب " .

"ومسبح اسمه بالعهد ويدرك من اتكل عليه وليس على غير الله العظيم " .

" رب كل عوالم الملائكة، وهو من نفسه ، وليس من غيرة والموت لا يشمله" (١٤) .

وورد في الكتاب المقدس(العهد الجديد) من نشيد زكريا: "لان الهنا رحيم رؤوف .. بتفقدنا مشرقا من العلي، ليضيء للقاعدين في الظلام ويهدي خطانا في طريق السلام " لوقا (١:٧٨ - ٧٩).

وتشير موسوعة-الأديان السماوية في العالم " إلى إن الصابئة المعاصرين يتحدثون عن كائن أعلى يعطونه أسماء متعددة منها: "ملك النور" و"ملك دنهورا" أو "رب العظمة" "ماراوربوثا " ، كذلك يتحدثون عن مساعدين

لهذا الكائن الأعلى لهم أدوار في عملية الخلق، وأحيانا يكون لهم وكلاء في هذه المهمة ، ومن هؤلاء الكائنات المساعدة " هيبل زيوا ، وأباثر، وبتاهيل"، وتختلف أدوارهم وصفاتهم ، وعندهم ان الله يخلق الخير فقط ، وانه لا يجوز في كما يرون ان يخلق الشر ، وينقل عن الشهرستاني وصفه لمذهب هؤلاء الذين يتقربون بالمتوسطات لدى الله بأنهم : الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة"، وتخلص الموسوعة من مجمل عرضها لمعتقدات الصابئة إلى انهم عقيدة وشريعة ، استمدوا ماهم عليه من مصادر متعددة ، منها ما هو من اليهودية والمسيحية ، والإسلام، ومنها ما يعود إلى المجوسية وسواها من الأفكار الوصفية (١٥) ، وبصدد ذلك بقول السيد عبد الرزاق الحسنى في بحثه عن الصابئة إلى ان ديانتهم تكاد تكون تاريخا عاما للأديان الأخرى، فان السنن التي تمست عليها هذه الديانة والتطورات التي تطورت بها تبدو في سنن وتطورات سائر الأديان ، منوها إلى انهم : ليسوا منكرين لوحدانية الخلق ، بل هم موحدون ، ولكنهم يعتقدون بأمور كخلق الخير والشر ووجود وسائط هي الكواكب وهو ما يسيء لعقيدتهم ويشوش توحيدهم وإيمانهم . (١٦) .

ويذهب د.رشدي عليان إلى الاعتقاد بان الدين الصابئ ليس من أروقه الأديان المنزلة وانما هو دين معرفي ينتسب إلى عائلة الأديان والمذاهب الغنوصية متذرعا بما وجده في مقدمة كتاب (الصابئة المندائيون) من أن اعتقاد الصابئة بالله يشبه إلى حد كبير اعتقاد الفئات الغنوصية (المعرفين) حيث انهم يدركونه عن طريق الفيض الإلهي ومن مظاهر الخليقة التي أبدعها (١٧) ولا نظن ذلك ، فطالما كان يسندون أفكارهم المتقدمة إلى النبي (يوحنا المعمدان) فإن من البديهي أن يكون اعتقادهم بالله مستمدا من مصدر سماوي ، وبالتالي فأنهم يعدون من بين سائر الأديان السماوية كما صرحت بذلك نصوص القرآن الكريم (٥: ٦٩ ، ٢ : ٦٢) .

التوحيد في الإسلام

تستفيض النصوص القرآنية في مجال التوحيد منطلقة في اعتبارات الفاصلة الزمنية الطويلة ما بين مرحلة الإبلاغ الرسالي في الإسلام وما سبقها من الدعوات التوحيدية وما شاب الحياة الغربية من شيوع الشرك والوثنية ، وعلى ذلك فقد أقرنت دعوة الإسلام إلى التوحيد بالمناظرة والمحاجة على وفق ما ترد تفاصيلها في الكثير من الآيات القرآنية لتكون دليلا اعتباريا لمطلب تحريك الفكر باتجاه الوصول إلى حقائق الكون والحياة وربطها بالموجد الحقيقي وبما يتناسب مع مدارك الإنسان في مرحلته،ومن خلال التوحيد للتدبر والتفكير في علل الكون وصولا إلى الحقيقة عبر مستند عقلي ودون أن تترك مسألة الإيمان بالله للفطرة فيما تعتبر أن الله كخالق للإنسان قادر على تثبيتها وتكريسها في النفس البشرية لو شاء: {ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين } (يونس: ٩٩) .

وبذلك فقد قررت الرسالة الإسلامية أن يبلغ الإنسان مرتبة الإيمان بالله والتيقن به بعقله وعبر تبصير الرسل والأنبياء ليكون العقل مفتاحا لرسم الاتجاهات الصحيحة لمعتقد الإنسان عبر التفسير العقلي لظواهر الوجود:

{ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك } (آل عمران: ١٩١).

{قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق} (العنكبوت: ٢٠).

{فلينظر الإنسان مما خلق ...} .

وتعتمد النصوص القرآنية الشواهد في ظواهر الكون لإقناع الإنسان الوثني، المشرك كما يتحول منها إلى عقيدة التوحيد {الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون * وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون} (الرعد : ٢-٣)

وقوله تعالى: {إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون} (البقرة : ١٦٤) .

وقوله تعالى: {يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} (البقرة ٢١ -٢٢).

وتعرض فصول كاملة من القرآن قصصا عن الأنبياء والرسل السابقين تتضمن في ثناياها الدعوة لعبادة الله ووحدانيته وللاعتبار بما ورد فيها:

{ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (يوسف : ١١١)

إلى جانب الآيات التي تروي حكايات ذات مغزى هادف إلى تعريف فكرة الإيمان بالله الواحد إلى الأذهان ، من ذلك الاستشهاد بما كان من أمر أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام كمثل ما ورد في سورة البقرة :

{ ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك، إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين * أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحما فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير} (البقرة : ٢٥٨ - ٢٥٩).

ثم تردد التفاصيل لقصة إبراهيم مع أبيه وقومه بشأن الأصنام - وهي مطابقة مع اختلاف في أسلوب العرض وفي سرد الجزئيات مع ما يرد بشأنها في كتاب العهد القديم - ودعوة إبراهيم إثرها قومه للتدبر في حال أصنامهم :

{ . . هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب

العالمين الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين . . } (الشعراء : ٧٢ - ٨٠)

وبذلك فقد كانت حملة التشكيك بعبادة الأصنام والمعتقدات الوثنية وتسفيهها حلقة أساسية من حلقات الجهد الابتدائي لتثبيت ركائز التوحيد، وأن جمهور العرب الوثنين قد تقبلوا التعاليم القرآنية - كما ينوه المستشرق هـ . جب: دون أن يتخلوا تمام التخلي عن معتقداتهم القديمة ، فكأن ما حققه محمد لديهم هو أنه فرض قوة مسيطرة عليا باسم (الله القوي المتعال) " وجعلها فوق ما عندهم من حصيلة تسمية، وبذلك ظل الموروث العربي القديم قائما تحت هيمنة ذلك القادر الأعلى ، وظل لديهم إيمانهم بالسحر وبالقوى الغيبية وبخاصة الشرير منها تحت كالجن وبالقرينة أو التابع وأشباهها ، ظلت قائمة مصبوغة بصبغة إسلامية تكشف هنا أو تضعف هناك " (١٨)

وقد اشتمل مبدأ التوحيد - كما يتضح في جملة من النصوص القرآنية على رابط لوحدة الفكر الرسالي في كل دعوات الأنبياء :

{ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون} (الأنبياء : ٣٥)

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) (آل عمران : ٦٤).

ونجد في العهد الجديد من الكتاب المقدس ما يؤيد ذلك التوجه في كون رسالة السيد المسيح قد جاءت تكملة لشريعة السابقين من الرسل وأنها جميعا تشكل نسيجا واحدا :

(لا تظنوا أني جئت لأبطل الشريعة وتعاليم الأنبياء ، مـــا جئــت لأبطـــل بـــل لأكمل،الحق أقول كم : إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف أو نقطـــه واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء) (مت : ٥ : ١٧ ـ ١٩) .

نبوة التوحيد في الزرادشتية

تعتبر الزرادشتيه من أخص الديانات التي التزمت دعوة التوحيد الإلهي في مجتمع وثني وبالنبوءة الشخصية إذ كان " زرادشت " قد أعلن نبوته قائلا انه تقابل وجها لوجه مع الله الذي يدعو "اهورا مازدا" - الرب الحكيم وحيث كان يؤمن بان الله يتحدث من خلال فمه وأنه قد أدركه في سلسلة من الرؤى كرب مقدس ، وأنه يتحدث اليه كما يتحدث الصديق إلى صديق :

(امنحنا السند الذي يعطيه الصديق الى صديقه) وهذا جزء من العلاقة التي كان يتصورها بين الله والإنسان ، وأنه من صميم طبيعة الله ، وأن للإنسان أساليب يوحد بها نفسه مع الله ، أنها " القرابين " التي تخلق العلاقة السحرية بين البشر والآله ، وأن شكلا واحدا من القرابين يتوافق مع هذه العقيدة الجديدة، وهو "قربان النار" حيث يعتقد زرادشت كما هو وارد في " الأوبا نيشادات ":

أن الكون كله عبارة عن نار قربانية، وأن هناك تطابقا أساسيا بين النار والقانون الكوني: (عند تقديم التبجيل الى نارك، سوف أفكر في الحق، في الرب طالما أملك القدرة) (١٩) .

وفي خطوة جريئة وموفقه من زرادشت لنشر دعوته فإنه قصد "الملك كاشتاسب" معلناً له بصوت قوي :

(أنا زرادشت سبتافا نبي الآله الواحد الحكيم جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام الشريرة التافهة إلى عدالة حق خالد حكيم).

ومـــن خلال تلك المناظرة المثيرة التي جرت بين زرادشـــت والكهنـــة بحضور الملك والتي استمرت لطول ثلاثة أيام وثلاث ليالي - (استطاع أن يثبت جدارته في تأهيل دعوته الوحدانية لأن تأخذ مكانها المميز في مجتمعها الوثنـــي لفترة من الزمن بحيث استطاع أن يكسب إيمان الملك كاشتاســـب الـــذي الـــتزم دعوته وأعترف به كنبي للإله حكيم وقد وضح خلال ذلك جوهر عقيدته الموحدة التي تقوم على فكرة وجود عالمين متجاورين ومتصارعين هما عالم (أهـــــورا فردا) - عالم النور-، وعالم الشر(أهرمان) وأن الصراع طويل بينهما قد انتـهى لصالح أهورا مزاد الذي يدعوه بالآله الحكيم الذي يعده وراء الخلق الخير فـــي الكون - وسنأتي على تفاصيل أوفى لذلك في الآتي بإيجاز .

والواقـــع أن زاردشت كان قد اقترب في أفكـــار كثـــيرة مـــن الأديـــان السماوية حيث أنه حذف الآلهة الذين تمتعوا بوضع خاص في إيران يومئذ ، بمـــا في ذلك (ثيـــرا) العظيمة لصالح (أهورا) العظيم بمفرده، الرب الحكيـــم الـــذي ارتبط به منذ ئذ المفاهيم في علم الكون الهند و - إيراني)) مـــع (الاهـــورات) الأخرى وأصبح (الديقان) خاضعين له لتصبح وجوها للرب الحكيـــم، ونمـــاذج لفعله واندمجت عناصر الصراع المبعثرة لنماذج مختلف الآلهـــة ، والشـــياطين، والوحوش الخرافيه بلا تحديد في صراع واحد، عام بين الخير والشر يكون فـــي الإله والإنسان في جانب واحد في ثلاث جواهـــر تشكل نوعـــا مـــن الثـــالوث العلـــوي؛ إذ لها : الروح المقدسة وهي الله كأصل للخـــير، وتمثيـــل الاختيـــار الطيب، وثانيها : النظام والحق ، وثالثهما : العقل الخير، ومن بين هذه الأقـــانيم التي أعلن أنها متطابقة مع الرب ذاته .

الأولى ، باعتبار أن الله قد اختار الحياة الضوء والحكمة، وأنه قد خلـــق ونظم العالم لخير البشرية ، فيما يضع النظام أو الحق في مكانة عالية بين جميـــع الكائنات السماوية ، وبذلك فإنه قد أزال صورة (ياما) والذي كان فيما مضـــى

البطل للتصوريين الأوليين، وخرج هذه التصورات في صورة (رؤيا) خاصة (٢٠).

وإننا لو حذفنا شريط أو أطروحة الاتصال المباشر لزرادست بالله كما يقره : (عندما أدركتك بعيني كخالق صادق للحق). لكان ثمة ما يقابل صورة الأنبياء والرسل في الديانات السماوية الذين يمثلون وجه النظام والحق لله بما يوحي إليهم، إذ أن القرارات التشريعية بهذه الأديان لم تكن إلا وحيا منزلا من مصدره في السماء (الله) عن طريق رسل منتدبين ومكلفين لمثل هذه المهام ، أو ما يحصل بالنداء .

ولم يكن ثمة ما يقر منها الاتصال المباشر بالله على نحو ما يذكره زرادشت ، ففي بدء الإبلاغ الرسالي لموسى يشير الكتاب المقدس من أنه قد سمع نداء الرب في وسط العليقة التي كانت تتوقد بالنار ولم تكن لتحرقه ، وأنه قد أمره أن يقترب إلى هنا بعد أن يخلع حذاءه من رجليه لأنه يقف في أرض مقدسة ثم قال له .

(أنا إله أبيك إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ، فغطى موسى وجهه لأنه خاف أن ينظر إلى السماء) (خروج ٣)، فما كان موسى عليه السلام يصعد الى الجبل ليسمع نداء الله: وأنه حين كان يقول لكل جماعه من إسرائيل امتثالا لأمر ربه: (قربوا إلي إمام الرب) - بعد أن تذمروا وهم في برية سيناء - وبينما كان هارون يكلمهم أنهم : التفتوا نحو البرية وإذا مجد الرب قد ظهر في السحاب، فكلم الرب موسى " (خروج ١٦) ، ويصدق القرآن ذلك مؤكدا بأن موسى لم يكن بوسعه أن يرى الله إلا على تلك الصورة.

ويذكر الكتاب المقدس بشأن سيدنا يحيى (يوحنا المعمدان) وهو يعمد السيد المسيح : أنه خرج من الماء وانفتحت السماوات له ، فرأى روح الله يهبط

كأنه حمامة وينزل عليه ، وقال صوت من السماء :(هذا هو ابني الحبيب الذي رضيت) (يوحنا ٣ : ١٦ - ١٧) .

وقبل ذلك فإن سيدنا إبراهيم سأل ربه أن يريه (كيف يحيي الموتى) فأشار له أن يعمد إلى أربعة من الطير فيقطعهن ويخلط ريشهن ويجعل على كل جبل من جبال أرضه جزءا ثم يدعهن إليه فيأتينه سريعا (٢١) - على نحو ما ورد في الآية ٢٦٠ من سورة البقرة - .

وبالنسبة للرسول محمد (ص) فإن الوحي كان يتنزل عليه عن طريق الملك (جبرائيل) ، وفي حادثة الإسراء والمعراج والتي ذكر أن الرسول (ص) قد التقى فيها بسائر الأنبياء ، فإنه لم يصح فيها كما نقل أنه قد رأى الله عيانا.

فقد ذكر " شمس الدين بن القيم " بشأن الآية ٣ من سورة النجم (ولقد رآه نزلة أخرى) أنه اختلف رأي الصحابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأى ربه، وصح أنه رآه أم لا ؟ فصح عن ابن عباس أنه رأى ربه، وصح أنه رآه بفؤاده وعن عائشة وابن مسعود إنكار ذلك، وقال إن قوله تعالى: (ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى) -إنما هو جبريل - وصح عن أبي ذر أنه سأله هل رأيت ربك ؟ قال: "نور أنى أراه " - أي حال بيني وبين رؤيته النور - كما في لفظ آخر رأيت نورا، وقد حكى عثمان بن سعيد الدرامي اتفاق الصحابة على أنه لم يره، وقال الإمام ابن تيميه: وليس كقول ابن عباس أنه رآه مناقضا لهذا ولا قوله رآه بفؤاده، وقد صح عنه أنه قال : رأيت ربي تبارك وتعالى ، ولم يكن هذا في الإسراء ، ولكن كان هذا في المدينة لما احتبس عنهم في صلاة الصبح ثم أخبرهم عن رؤية ربه تبارك وتعالى تلك الليلة في منامه " . (٢٢)

وعلى أية حال ، فإنه عدا ما ذكرنا - فإن زرادشت قد جسد في ترانيمه وحدة الذات الإلهية ، وأعطى لله تعالى نفس الصفات التي وردت عنه في الفكر التوحيدي السماوي ، مركزا على التصور العقلي في معرفة الله : (بواسطة العقل أيها الحكيم قد عرفتك كمبتدي ومنتهي ، كوالد للفعل الخير، عندما عاينتك بعيني كخالق حق ، كسيد في أفعال الوجود، (ترنيمة ٣١:٣) - وهو نفس المعيار الذي خصت النصوص القرآنية على اعتماده في معرفة الله ، حيث ترد في الوافر من الآيات عبارات " يتفكرون ، يتدبرون ، أولو الألباب ..)، وعلى ذلك فإن زرادشت يقدم الدلائل العقلية التي تمثل بها وجود الله مما في الطبيعة :

(من عين للشمس والنجوم سيرها)

(من إلا أنت الذي بواسطته ينمو القمر ويغيب)

(من أرسى الأرض ، موضعها السفلي، وسماء السحب، التي لا تسقط أبدا)

(من خلق المياه والنباتات)

(من أسرج للريح والسحب حيادها السريعة)

(من أيها الحكيم خالق العقل الخير)

(من الصانع الذي صنع كلا من الضياء والظلمة)

(من الصانع الذي صنع النوم واليقظة)

(من صنع الصباح، والظهيرة، والليل)

(الذي يذكر الرجل الحكيم بواجبه) (ترنيمة ٤٤ : ٣)

وعن طبيعة الله وصفاته جاء في ترانيم زرادشت:

(إن الرب حكيم بالغ العظمة له العرش والقصاص) (٢٨ : ٥)

(الواحد الحكيم ، اب العقل الخير الفعال)

(الرب كلي القداسة ، لا سبيل للإضلال إليه) (٤٥ : ١٤)

(إن الكمـــال والخلود من نصيب ملكه ... والقوة على الدوام في مقـــره... ولــه المجد المقبل) (٣١: ٢٠)

(أيها الرب الحكيم ، أنت كروح بالغ القداسة، امنحني الخلود والكمال والقوة ..) (٥١ : ٧).

(أنا أعرف أن أفضل شيء هو عبادة الرب الحكيم)) (٥١ : ٢٢).

.. وعلى ذلك فإن زرادشت كان كما قال (جـــاك دوش حيلمـــان):قـد استوعب القيم الإنسانية كقيم كونية، وأنه استطاع أن ينزل إلى مستوى الإنســـان بكلمات (بول فاليري) : (الأعمال العظيمة التي في الســـماوات) : غـــير أن الزرادشتيه كعقيدة كما رأينا لم تستطع أن تصمد أمام المــد التوحيدي للإســـلام الذي امتد بظلاله إلى ديارها (هو المدرك بالروح كرب حكيم).

وفي تقديرنا فان زرادشت كان يمثل بوجه في الوجوه) (الأحناف) الــذي كان لهم دورهم المحدود في بث فكرة التوحيد إذ أدركـــوا بعقولهـــم بطـــلان الوثنية، وأنهم قد واجهوا من العنت بعض ما واجهه قبلهم زرادشت .

الهندوسية بين تعدد الآلهة والتوحيد

تعتبر الهندوسيـــة، أو ما تسمى أحيانا بالهندوكية مـــن بيـــن الديانـــات العريقة التي تتأصل جذرهـــا التاريخي في الحياة الإنسانية لتمـــر فـــي بعـــدي التطور في الفكر الديني، ما يتصل منه بالإلهية - وأساطيرها ، وما يتصل منـــها بالوحدة الآلهة على نحو غـــدت فيه هذه الديانة على نحو ما تشـــير موســـوعة الأديان في العالم "-أسلوبا في الحياة اكثر مما هي مجموعة فـــي العقـــائد التـــي يوضح استيعابها لشتى العقائد والفرائض التي منها ما يهبط إلي عبادة الأحجـــار والأشجار وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة، وان تقديس الظواهر ومـــا يتعلق بها من الآلهة المفترضة عندهم إنما ينبع في مفهوم يسود في دينهم مفـــاده أنه عندما عمت الفوضى والمفاسد في المجتمعات القديمة فـــإن الحـــق بحاجـــة للظهور ، ولذلك نزلت الآلهة لإحقاق الحق ونشر العدل، والثبات عندهم القـــول بالثالوث من الآلهة الذين تسند لكل منهم مهمة بيعتها، وتكون هذا الثـــالوث مـــن (براهما -فيشنو، وشيفا).

ومن بين هؤلاء يعتبر براهما الذي يطلق عليه اسم (سانج هيانج) هـــو الخالق الذي ترجى رحمته وكرمه وعطفه جميع الأحياء، وينسبون إليه الشـــمس إلى يكون فيها الدفء وانتعاش الأجسام ، وتجري بسببها الحيـــاة فـــي النبـــات والحيوان، ويعتقد أنه خالق الكون على طريقته ، فيمـــا يكـــون فيشـــنو بمثابـــة الرسول، وكثيرا ما يصورونه على هيئة إنسان جاء ليقدم الخير والعون للبشـــر وتنســـب إليه كل صور الخير والجمال والحب ، والعطاء ويساعده في مهمتـــه آلهة آخرون منهـــم - راما ، وكرشنا - وتظهر عشرة تجليات رئيســـية لفيشـــنو

الإله الأعلى والرب الحافظ للكـون، وكل شكل من أشكال فيشنو هـي تجلـي لبراهما في الواقع المطلق أو الحقيقة النهائية .

وهذه التجليات يستحضرها الهندوس باسم آلهة لها حضور مميـز فـي الشعائر الهندوسية ، فيما ينسب إلى شيفا الفناء، والدمار، فـهو الملـك للعـالم ومهمته نقيض مهمة فيشنو وتنسب إليه كل الأعمال البشعة والشـر والحـروب والجفاف (٢٤) .

وعلى ذلك فإن كلا من- فيشنو وشيفا - وأتباعهم من الآلهة يكونـون إذا قربناهم لما هو متصور في العقائد السماوية بمثابة الملائكـة المدبريـن الذيـن يختص كل منهم بمهمة كونية ، حيث حددت لكل من - كرشنا، ورامل ، وبـودا، وكاليكي - مهمات ووظائف موجودة من أجل إحلال صفة الربانية الطاهرة فـي النفوس، مقابل الشياطين ومن والاهم ممن يشيعـون ظواهر الشـر ويقـاومون مواقع الخير والفضيلة. وبالنسبة للتصور الآخر للوحدة، أو ما يصح ان نسـميه وحدة الأداء ، أو الوظيفة الكونية يشار إلى أن كاهنا توجه إلى الآلهة - برهمـا، وفيشنو، وسيفار وسألهم : أيكم الإله بحق؟ فأجابوا جميعا أيها الكاهـن أنـه لا يوجد أدنى فارق بيننا نحن الثلاثة ، فإن الإله واحد، يظهر فـي ثلاثـة أشـكال بأعمال من خلق وحفظ وإعدام ، ولكنه في الحقيقة واحد ، فمن يعبد أحد الثلاثـة فكأنه عبدها جميعا ، أو عبد الواحد الأعلى (٢٥)، فيما يذكـر أن الهندوسـية الخالية تعد براهما هو أبو الآلهة ، وهو منشئ الكون وحارس العالم (٢٦).

ويقف بنا المؤرخ ول. ديوارنت "على حقيقة ذلك التطور الذي مر بـه الاعتقاد الهندسي والذي لعب فيه حكماء (اليوبانشاد) دورهم الهام، وقد تم ذلـك كما يذكر في خطوات ثلاث، الأولى منها ما يدعى بـ(المذهب السري) والـذي يقوم على أن جوهر النفس ليس هو الجسم ولا هو العقـل، ولا هـو الـذات

الفريدة، ولكنه الوجود العميق الصامت الـــذي لا صـــورة لـــه، الكـــامن فـــي الوجود(أتمان).

والخطوة الثانية فهي (براهما) وهو جـوهر العالـم الواحد الشامل الذي لا هو بالذكر ولا بالأنثى غير المشخص في صفاتـــه ، المحتـــوي لكـــل شـــيء والكامن في كل شيء، والذي لا تدركه الحواس ، والذي يولـــد ولا يتحلـــل ولا يموت ، وإن " أتمان" روح الأشياء والقوة وراء جميع القوى والآلة، والخطـــوة الثالثة قد تمت إثر ذلك الحوار المثير الذي كان بين(ياجنا فالكيا) و(فيدا جـــا دا سا) الذي استمر يسأل :

- (كم عدد الآلهة يا ياجنافالكيا).

فأجابه : عددهم المذكور في الترنيمة للآلهة جميعا ثلاثمائة وثلاثة، وهم ثلاثـــة آلاف وثلاثة.

- (نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين ياياجنافالكيا).
- عددهم ثلاثة وثلاثون.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين ياياجنافالكيا ؟
- عددهم ستة.
- نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين ياياجنافالكيا؟
- عددهم اثنان.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين ياياجنافالكيا؟
- إله ونصف.
- نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين ياياجنافالكيا؟

- إنه إله واحد.

وانتهى ذلك إلى أن (أتمان) و(براهمان) إن هما إلا في واحد بعينه، وأن ما هو ذاتي وموضوعي شيء واحد،الإنسان في حقيقته التي تتجرد من الفردية هو بعينه جوهر للكائنات جميعا وأن هذه الفلسفة كانت سائدة في التفكير الهندي من بوذا إلى غاندي ، ومن ياجنافالكيا إلى طاغور وهي بمنزلة العهد الجديد للأقطار المسيحية مذهبا دينيا ساميا (٢٧) .

البوذية: التأليه البشري

والبوذية نشأت من فكرة مغالبة الأهواء ، والتركيز الذهني السليم، أو صدق التأمل الروحي بالتبتل والرياضة الروحية كي يصل الإنسان إلى الغرض الأسمى وهو (النرفانا nirvana) وهي الهدف الأسمى من التأمل في التفكير الديني الهندي ، وحالة الاستنارة والتحرر في البوذية ، أو انعدام فكرة الأنا كجوهر (٢٨)، وينطلق ذلك من الناموس الطبيعي الذي يقول عنه بوذا بأنه : (ليس نجاضع لذات قدسي يتصرف فيه كيفما يشاء ، بل إن ذلك النلموس مستقل بذاته، نافذ بنفسه ، لا تتأثر بمؤثر بشري أو إلهي) (٢٩).

وعلى ذلك فإن بوذا قد تخلى عن القول بان هناك إلها ، بل إنه كما نقل من قول(رادها كرشنن) - نائب رئيس الجمهورية الهندية -: (لم يعن بالحديث عن الآلهة ولم يشغل نفسه بالكلام عنه إثباتا أو إنكارا وتحاشى كل ما يتصل بالبحوث اللاهوتية وما وراء الطبيعة أو القضايا الدقيقة في الكون إذ كان يرى أن خلاص الإنسان متوقف عليه هو لا على إله ، وان الإنسان صانع مصيره، زمن كلماته في ذلك: (كونوا لأنفسكم جزائر قائمة بنفسها ، وكونوا لأنفسكم موائل وكهوفا، ولا تعتصموا بملاذ خارجي) ..

بل إنه وقف مرة يسخر ممن يقولون بوجود الإله، وكان مما قاله في ذلك: إن الذين يتكلمون عن الله ، لم يروه وجها لوجه، فهم كالعاشق الذي يذوب كمدا، وهو لا يعرف من هي حبيبته ، أو كالذي يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر) ولكن اتجاهات البوذية في الهند لسهولة هذه الاتجاهات ولعدم تعارضها مع آلهة الهندوس، ولذلك فإن كثيرا من الهنود -

كما أشار رادها كرشنن - يتبعون البوذية في إطلاقها ويظلون مع ذلك على ولائهم لآلهة الهندوس .

وعلى ذلك فقد بدأت البوذية تختلط في مظاهر بالهندوسية ، وبدأ البوذيون يعترفون بالآلهة الهندوسية ويتقربون إليها ليندمجوا في تقاليد الهندوسية وطقوسها وآلهتها، فيما وضع أتباع بوذا الذين قالوا عنه أنه (كائن الهي) - تمثال بوذا بين آلهة الهندوس ، ولم يعارض الهندوس لأن العقل الهندوسي لا يضيره أن ينظم إله جديد إلى ما يعترف به من آلهة، وبجوار تمثال بوذا ظهرت آلهة أخرى في البلدان التي دخلتها البوذية، فظهر في اليابان تمثال (الإله شنتو shinnto)، وفي الصين ظهر تمثال(الإله تاوسيم tao sim) .

وبعدئذ فقد وجدت مظاهر لتقديس بوذا الأكبر لنجعل له من الصفات ما يكون للإله الأعظم، ذلك أن (آدي - بوذا adi buddha) قد عد في بوذية المهايانا هو بوذا الأصلي الذي كان قبل كل شيء - اللامتناهي، العليم بكل شيء، الموجود بذاته بغير بداية ولانهاية ، لكنه مع ذلك ليس إلها خالقا ولا يرادف تصور الإله، وإن إحدى الأساطير تذكر أن الخلاء كان يحيط بكل شيء عندما تجلى صوت غامض من أوم الذي أنتج بإرادته الذاتية (آدي - بوذا) الذي تجلى على هيئة مشعة انبثقت من زهرة اللوتس (٣٠).

ومهما يكن من أمر البوذية في موقفها من الله فإن في دعوتها للتجرد والتسامي الروحي - كما سيرد بيانه - ما يقربها من المنحنى الروحي للأديان السماوية.

الكونفوشية التي تنسب إلى كونفوشيوس الفيلسوف الصيني المعروف(٥٥١-٤٧٩ ت.م) أقرت بأن السماء، هي مصدر الخير والصلاح وفي ذلك يقول: (السماء أمدتنا بالصلاح الذي فينا)، (ما أسمى التفوق الخلقي الذي مصدره السماء).

معلنا أن: (من لا يعترف بالقانون الالهي لا يكلف آنسانا رفيعا) ومؤكدا أن : (المخطئ في حق السماء ليس له من يتوجه إليه في الصلاة) مقرا بهذه المفاهيم وسواها مما يرد في جملة تقريراته وأحاديثه التي سنورد بندا منها في الفصول اللاحقة - توافقه مع منهج الأديان السماوية التي يكون فيها الإصلاح والاستقامة من أخص مبتغياتها ، فمن مشترطات العبادة التي يرمز إليها بالصلاة أن تكون اللازمة للسلوك القديم والرادعة عن اجتناب الآثام، وبذلك جاء النص القرآني الكريم : {إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر} (العنكبوت ٤٥).

وتذكر(معجم ديانات وأساطير العالم أن الأمر قد انتهى بالصينيين إلى عبادة كونفوشيوس وشيدت له الكثير من المعابد في كل مقاطعة في الصين ، وأنه حتى عام ١٩١٤استمرت عبادة كونفوشيوش بقيادة (يوان شهى yuan shihi) أول رئيس لجمهورية الصين ، وأن كتبه الخمسة والمسماة بـ (كتب القانون) استخدمت كوثائق أو كتب مقدسة تحولت إلى ما يشبه الديانة فيما بعد، وأنه تحت ضغط تحدي البوذية والتاوية شرع بعض فلاسفتها من أمثال(شاو بونج) و (شوكون - آي) إلى استخراج كل منظم من الكونفوشية، واكتمل هذا الفكر النظري في صورة نهائية على يد تشوهسي، والتي تعد من

أعظم فلاسفة الصينيين طوال ألف عام ، حيث سادت الكنفوشية الجديدة التي سيطرت على الحياة العقلية في الصين وأمتد أثرها إلى كوريا واليابان .

ومن خلاصتها الفلسفية يمكن استخلاص المعيار العقلي الذي يفضي إلى الإيمان بحقيقة الوجود (يوجد في أي عقل بشري ملكة للمعرفة ، كما يوجد في أي شيء مبرر وجوده، ويرجع نقص معرفتنا إلى عدم كفاية بحثنا عن علة كل شيء) .

ويبقى من بين الديانات التي تقرر بالخط الوسط ما بين خطوط سائر الأديان ، من دون أن تلزم نفسها بمنهج ديني ثابت، مع إقرارها بشرعية القيم والثوابت المبدئية فيها جميعا ما يكون من (مذهب الجنانايوجا) الذي ذكرت عنه "موسوعة الأديان في العالم" أنه : "يرى في كل الديانات وفي كل الفلسفات حقا، ولكن هذا الحق ليس سوى ذرة من الحق الأعظم الكامل، فهو لا يعترض على أي دين ، ويرى أن أي دين أو فلسفة ليس فيه كل الحق، ومتفق هذا التفكير لا ينتهي لدين، أو مذهب لأنه يرى إتباع كل الديانات المختلفة أخوة له مهما اختلفوا، فجنانا يوجا مذهب يتسع لمعتقدات الجميع ، ويأبى أن يتقيد بقيود أي منها " (٣١).

وإلى جوار ذلك الفكر التأليهي الذي كان ولا يزال له حصة وافرة من مجمل التفكير الإنساني ، فإنه نشأ اتجاه معاكس أقل شأنا من ذلك، وهو اتجاه "الجينية" - وهي حركة قيل أنها مطبوعة بطابع الذهن الهندوسي العام ويذهب فيها "مهاويرا" إلى عدم الاعتراف بالآلهة، وإن كل مخلوق يتكون من جسم وروح (٣٤) ولهؤلاء أشباه ونظائر في بين جملة من المذاهب التي تحفل كتب الملل والنحل عندنا في ذكرهم ، وهم هؤلاء كانوا أو لم يكونوا كمثل ما كان من شأن أمثالهم كانوا ولازالوا في آخر المطاف من سلسلة الإيمان الذي شاع

ويشيع نورا مستمدا من نور السماء، الذي لا يخبو سناه كمثل ما لم يخبو ذلك النور الأزلي الدائم الذي يتجدد تجدد الحياة ..

أما مسالة الانتماء الديني أو شكل الإيمان وطبيعته فإن ذلك إنما يعد انعكاسا للواقع البيئي في كل مكان وزمان ، فالإنسان إنما يكتسب معتقداته وفلسفته في الحياة من المجتمع الذي يحيا فيه ، كمثل ما تكتسب الشجرة لون حياتها من أرضها ، ويصدق في ذلك قول الرسول الكريم محمد (ص) :

" ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يشركانه"، وفي حديث آخر : "ما من مولود يولد إلا وهو على الملة " (حديث ابن نمير) (٣٢) .

المبحث الثاني

توافق الأحداث في النصوص الدينية

☆ خلق الكون

☆ خلق آدم ... وما كان من أمره .

☆ الملائكة .... وإبليس.

☆ الجزاء ، أو معتقدات الدار الآخرة .

☆ الطوفان .

☆ إبراهيم وبنوه .

تـوافـق الأحـداث

في الـنـصـوص الديـنـيـة

توافق الأحداث في النصوص الدينية

في مقايســة الأحداث في نصوص الشرائع الدينية مع بعضـــها يــبرز الوافر من دلالات التوافق الموضوعي بينها، ومن يستجلي الأصول التاريخيـــة للفكر الديني وحوادثه لا يمكنه أن يخرج من إطار الدائرة التي تشـــكل محيـط الأديان السماوية كلها، ومحورها الإيمان بالله، المتفرد بذاته وصفاتـــه وقدرتـــه، والمستوجب الطاعة والامتثال.

ولطالمـــا تجد في أدبيات الفكر الموسوي، أو المسيحي، أو الصـــابئين ، ثم في الفكر الإسلامي الذي أوفى غرض الرسالة السماوية كلها، ما يستدل فيـــه على خلاصته لمجمل أحداث المسيرة التاريخية للرسالات السماوية منذ أن ابتـــدأ أول خيط من خيوط الإبلاغ الرسالي وحتى آخر شوط في رسالة الإسلام.

وبمثل ذلك فإن استجلاء ما يرد في أدبيات الأديان غـــير الســماوية – المتساوقة معها– ما يقف عند حصيلـــة التفكر الديني على مر العصور، وبودنـــا أن ننوه إلى أننا لو شئنا تتبع سائر الأحـــداث والمشـــاهد التـــي تـــرد بـــالتواتر والتوافق في معظم كتب الشرائع الدينيـــة مع ما يقتضيها في شروح لاقتضانـــــا ذلك العديد في المجلدات، وعلى ذلك فإننـــا سنكتفي بالبـــارز الـــهام فـــي تلـــك الأحداث وبشكل خاص منها ما يرد في العهدين القديم والحديـــث مـــن الكتـــاب المقدس وما يصدقها من شواهد الدلالة في القرآن الكريم الذي استفرد بـــأحداث العهدين الموسوي والعيسوي ليفيهما جملة وافرة من النصوص المعبرة عن دالـــة التوافق في الرباط المبدئي ما بين الديانــــات الســماوية الثـــلاث علـــى وجـــه الخصوص، كمثل ما تتوافق كل المنظومة الدينية السماوية مع بعضها ، وبضمن لك سنورد أحداثاً ومشاهد أخرى تختص بأديان أخرى .

ومن نافلة القول التنويه إلى أن الكتاب المقدس قد انفرد بسرد الأحداث التي تتصل بالمرحلة الإسرائيلية بشكل أوفى مما سردته النصوص القرآنية لتعلق ذلك بالمجتمع الإسرائيلي بالذات ، ولكون الإشارة التفصيلية كمثل تلك الأحداث تغني عن إعادة سردها ، وإنما كان السرد القرآني لقصص الأنبياء يأتي من باب التذكير والاعتبار بما ورد فيها من وجهة، ولاعتبارات التأكيد على توحد الموقف الرسالي من القضايا الأساسية التي التزمت الرسالات السماوية بمنهجها الثابت. {لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدىً ورحمةً لقومٍ يُؤمنون} (يوسف: ١١١). فيما يتكرر ذكر الأحداث في سور عديدة أخرى كمثل سورة القصص التي وردت الإشارة فيها لما كان من أمر موسى عليه السلام مع قومه في ست وأربعين آية، وسوى ذلك الكثير من الآيات في سور شتى عن الفترة الإسرائيلية التي استأثرت أحداثها بالحصة الأكبر من مجمل أحداث الزمن السابق في القرآن، وهو ما نوهت له "الآية ٧٦ من سورة النمل":

{ إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون} .

وفضلاً عن مجريات الأحداث التاريخية التي تبقى بدلالات التوافق في المسار الرسالي للأديان السماوية فان من شواهد التوافق في الأحداث المسردة في نصوص الكتب المقدسة ما يفيد في استملاء القدر الأوفى من حقيقة ذلك التوافق الذي يعبر عن تطابق الغاية في التكليف الإلهي للرسل، ويكون ذلك أجلى بياناً في ملاحظته موارد الأحكام التي تنظمها الشرائع السماوية والذي يجيء كما يبدو على قدر آخر من التوافق مع ما يرد في جملة شرائع الأديان غير السماوية كذلك، وهو ما سنتعرض له في فصل لاحق، وفي الآتي بيان موجز لأبرز الحوادث التي توافقت فيها نصوص الشرائع الدينية.

خلق الكون

تندرج ضمن موضوع خلق الكون (السـموات والأرض) كمـا تـورده نصوص الكتب المقدسية- قصة التكوين الإنساني- وروايته بقدر متفاوت مـن السرد للجزئيات، فيما تمثل بمجموعها كوميديا كاملة لواقعه الخلـق الكونـي - المنظور منه وغير المنظور - والذي تصوره عدسة الخالق مشاهد مثيرة نقلـها المرسلون عبر النصوص.

حكايـات تستحق التأمل وفيها الكثير مما يسرده أهـل التـاريخ ومـن الحـق أن يقال أن فصول "التكوين" في الكتاب المقدس تعد بين جملة النصـوص الدينيـة-المصدر الحيوي التي يمكننا من خلالها مع ما يرد في بعض الفصـول من السور القرآنية وسواها من النصوص المقدسـة - التعـرف علـى العـالم، الملكوت الإلهي وما يكون فيه من معالم التدبير، أو الإدارة الكونيـة وملاكـها، والذي هو من السعة والشمول ما لا تقارن به وظائف التدبير -أو الإدارة - فـي ممالك الأرض ، وقد عزمنا أن نفرد بحثاً خاصاً عن ذلك لا زلنا نستجمع مادتـه من كثير من المصادر .

يروي لنا الكتاب المقدس قصة خلق السموات والأرض في "ستة أيـام" متوافقاً في ذلك مع ما يرد في القرآن الكريـم، ومختلفا في شيء من ذلك مـع الفكر الصابئ -، حيث : "خلق الله في البدء السموات والأرض وكـانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة ووجـه الله يرف على وجه الماء... وقـال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنـه أحسن، فـأمضى أوامـره لبنـاء

الوجود يوما فيوما (معمارا كاملا لا يرقى إليه أي معمار يمكن تخيله من صنع إنسان على الأرض) وعلى وفق الآتي :

في اليوم الأول: فصل الله بين النور والظلمة ودعا الله النور نهارا والظلمة دعاها ليلا وكان مساء وكان صباح يوما واحدا ,

في اليوم الثاني : قال الله تعالى ليكن جلد في وسط المياه وليكن فاصلا بين مياه ومياه فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان ذلك ، ودعا الله الجلد سماء ، وكان مساء وكان صباح يوما ثانيا .

في اليوم الثالث: قال الله تعالى لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك ودعا الله اليابسة ومجمع البحار بحارا، ورأى الله ذلك أحسن وقال الله لتنبت الأرض عشبا وبقلا يبرز بزرا وشجرا إذا أثمر يعمل ثمرا كجنسه وشجرا يعمل ثمرا بزره فيه كجنسه، ورأى الله ذلك أحسن وكان مساء وكان صباح يوما ثالثا .

في اليوم الرابع: قال الله تعالى لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين، وتكون أنوارا في جلد السماء لتنير على الأرض، وكان كذلك، فعمل الله النوريين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار، والنور الأصغر لحكم الليل (الشمس والقمر) وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة ورأى الله ذلك أحسن، وكان مساء وكان صباح يوما رابعا .

اليوم الخامس : قال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية وليطر طير على وجه جلد السماء، فخلق الله التنانين وكل ذرات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها وكل طائر ذي جناح كجنسه، ورأى الله ذلك انه

أحسن وباركها الله قائلا أثمري واملأي المياه في البحار وليكثر الطير على الأرض وكان مساء وكان صباح يوما خامسا .

في اليوم السادس: قال الله لتخرج الأرض ذوات الأنفس حية كجنسها، بهائم، ودبابات ووحوش أرض كأجناسها وكان كذلك فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجمع دبابات الأرض كأجناسها، ورأى الله ذلك أنه حسن، وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى جميع الدبابات، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة خلقه ذكرا وأنثى ، خلقهم وباركهم، .. وقال الله لهم أثمروا وأكثروا واملأوا الأرض واحضنوها .. وقال الله إني أعطيتكم كل بقل يبزر بزرا على وجه الأرض وكل شجر فيه ثمر لكم يكون طعاما، ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما ... ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن، وكان مساء وكان صباح يوما سادسا .(التكوين ٣ :٤)

" فاكملت السموات والأرض وكل حندها ، وفرغ الله في اليوم السابع، وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقا " : (التكوين ٢ :٥) وفي ذلك ندرك مغزى تقسيم أيام الأسبوع إلى سبعة أيام واستراحة الإنسان في آخر يوم منها .

والآن... وبعد أن أدلى العهد القديم من الكتاب المقدس بشهادته حول خلق السموات والأرض وما فيهما، وخلق الإنسان ليكون الوارث المدبر والمسخر لما في هذا الكون تحقيقا لإدارة الله في خلقه، فإن لنا أن نستطلع ما أفادت به سائر الكتب المقدسة حول ذلك.

الملاحظ أن العهد الجديد من الكتاب المقدس لم يشأ أن يورد ما يتصل بمسألة خلق الكون لما أوردناه من كون الرسالة السيد المسيح قد انبعث في الوسط اليهودي الذي أغنته الرسالة الموسوية بالحقائق المتصلة بذلك، فيما ركز السيد المسيح جل اهتمامه على تأكيد الحقائق المبدئية المتصلة بالسلوك الإيماني المتفق مع جوهر الشرائع السماوية ، فيما وردت الإشارة في أعمال الرسل لبعض الحقائق المتصلة بمسألة خلق الإنسان سنوردها عند الحديث عن ذلك .

وفي القرآن الكريم فان نصوصه قد أشارت إلى فترة خلق الكون طبقا لما ورد في الكتاب المقدس.

{. . إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر} . (الأعراف : ٥٤)

{إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر. .}. (يونس : ٣)

{ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليبلوكم أيكم أحسن عملا} . (هود : ٧)

{الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش فسئل به خبيرا}. (الفرقان : ٥٩)

{ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب} (ق :٣٨).

وتجعل آيات أخرى فترات الخلق وموارده بقدر أوجز مما ورد في الكتاب المقدس.

{قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم} (فصلت : ٩ – ١٢)

{أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعا لكم ولأنعامكم} (النازعات : ٢٧-٣٠) .

وعن تعيين أيام خلق السموات والأرض ورد في التفسيرات أن اليهود أتت النبي محمد صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال: خلق الله تعالى الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال وما فيهن من المنافع يوم الثلاثاء، وخلق الشجر والماء والمدائن والعمران والخرائب يوم الأربعاء، فهذه أربعة فقال تعالى: " إنكم لتكفرون بالذي خلق ... الخ" وخلق يوم الخميس السماء، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر والملائكة".

وقد اختلف المفسرون المسلمون في ان خلق السماء مقدم على خلق الإنسان أو مؤخر ونقل الإمام الواحدي عن مقاتل الأول واختاره المحققون ولم يختلفوا في أن جميع ما في الأرض مما ترى مؤخر عن خلق السماوات السبع

فحينئذ يجعل الخلق في الآية بمعنى التقدير لا الإيجاز أو بمعناه وتقدر الإرادة، فيكون المعنى المراد خلق ما في الأرض جميعا ولا يخالفه... " .

والأرض بعد ذلك دحاها" فان المتقدم على الخلق السماء إنما هو تقدير الأرض وجميع ما فيها، أو اراد إيجادها، والمتأخر عن خلق السماء إيجاد الأرض وجميع ما فيها ، وفي قوله " أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين" أراد إيجاد الأرض وما فيها من الرواسي والأقوات في أربعة أيام، ثم قصد إلى السماء فتعلقت إرادته بإيجاد السماء والأرض فأطاعا بأمر التكوين، فأوجد سبع سموات وأوجد الأرض وما فيها في أربعة أيام" (٣٣) .

وبينما يورد الفكر الصابئ بيانات عن خلق الكون لا تتماثل في جانب منها بالكلية مع ما توافق عليه الكتاب المقدس والقرآن الكريم، خاصة فيما يتعلق بنوع الكائنات وتدرج عملية الخلق، إلا أنها تقرر حقيقة أن الله قد خلق بالفعل عوالم سبعة تستمد نورها من الشمس ومن ضمنها عالم الأرض في خضم عوالم لا تعد مملوءة بالنفوس المقدسة، حيث أن المخلوق الأول لله كان شخصا روحانيا يدعى "هيي قدمايي" – أي الحي القديم – أو الحياة الأولى.

وقد خلقه الله وخلق معه عوالم كثيرة مملوءة بالنفوس المقدسة التي لا تحصى، ثم خلق الحي الثاني " هيي ثنياتي" أو الحياة الثانية، وخلق معه كذلك عوالم لا تعد مملوءة بالنفوس المقدسة، مخلق "هيي إثليثاتي" – أي المخلوق الثالث" أو الحياة الثالثة ، وخلق معه ما خلق مع سابقيه.

وهذه النفوس التي تقطن هذه العوالم ينقسمون إلى قسمين حسب رتبهم (عوام، وملوك) ويسمى الأول " أثري" والثاني، "ملكي" ثم خلقت سبعة عوالم تدعى " آلمي دهشوخا" – أي عوالم الظلام التي تستمد نورها من الشمس وسكانها بين قسمين أيضا " عوام، وملوكي، "اثري، ملكي" ، وإن أرضنا هي

ضمن هذه العوالم السبعة، أما هيئة الأرض عندهم فهي (مدورة) ثابتـــة، غــير متحركة، وتحت الأرض انبسطت عليه، وان السمــاء تتكون من سبع طبقـــات، تقع الشمس في الطبقة الرابعة، والقمر في السابعة، والأرض والسماء مركبتـــان في مادتين هما: الماء والغاز، ومن هاتين المادتين تكونـــت الأرض والســماء، وكذلك جميع المخلوقات الحية فإنها تمتاز بأربع طبائع أخــرى هـــي الصفــراء والسوداء والبلغم والرطوبة (٣٤) .

وفي نصوص كتابهم المقدس (كنزاربا) يرد فيما يخــص نشــأة الكــون "واعطى ماء الحياة الذي يروي العالم كله "

" وأوجدت الحيوانات والدواب والطيور الجميلة كل أصنافها ذكرا وأنثى"

" وهبت سائبة لآدم وذريته"

" ووهبت رياح أربعة ونسيم تنسمه الدنيا" (٣٥)

وفي " ترجمة الخليقة من ريك فيدا **–Rigveda** –

من كتاب العقائد الهندوسية – نقلت إلينا النصوص التالية وفيها ما يشــير إلى قصة الخلق.

" لم يكن حينئذ ما لا وجود له ، ولا ما هو موجــود، لم يكن هناك منطقة هــواء لا من وراءها سماء، لم يكن يومئذ موت ولا خلود، ولم تكن علاقة تفصل بيـــن الليل والنهار، ذلك الأوحد الذي لا يتنفس، تنفس بطبيعته الخاصة، وما عداه لــم يكن شيئا أبدا .

" كان ظلاما، وفي البدء اختفى الظــلام هذا الكل الهيولي الذي لا يمــيز كل الوجود، كان وهما لا شكل له، وبقوة الدفء العظمى ولدت تلك الوحدة، ثـــم نشأت الرغبة في الرغبة المبتدئة ، البذرة الأولى، والنطفــة للــروح، الحكمــاء

الذين بحثوا في قلوبهم علاقة الوجود بالذي لا وجود له، وعرضا امتد خط تقسيمهم ، فماذا كان فوقه وماذا كان تحته ... وجد الوالدات ووجدت الطاقات العظمى، تعمل حرة على الأرض وقوية في السماء"

" ومن يعلم حقيقة هذه الخليقة ، ومن يستطيع أن يجد من أين جاءت ..، " آن الآلهة جاءت بعد أن أوجدت هذه الدنيا فمن ذا الذي يعلم كيف جاءت الدنيا إلى الوجود " .

" هو الأصل الأول للخليقة، سواء كان هو الذي أنشأها جميعها، ولم ينشئها، الذي عينه تحكم هذا العالم من علياء السماء، هو يعلم حقيقتها، أو ربما لا يعلمها" .

والنصوص الهندوسية الحالية كما يذكر بعد (براهمار أبو الآلهة) هو منشئ الكون، وحارس العالم ، وقد جاء في الملحمة الهندوسية "المها بارتا" أن براهما خرج من سرة الإله فشنو... وأنه لما كانت الأرض غارقة بالمياه فقد اتخذ شكل الخنزير البري، وفي كتابات هندوسية متأخرة أن الذي قام بهذا التحول وتجسد في هيئة خنزير بري هو الإله فشنو وأنه غاص تحت الماء ليرفع الأرض على نابيه، ثم باشر براهما بعد ذلك عملية الخلق" (٣٦).

وفيما يبدو مما مر تغلب النزعة الطبيعية في تفسير خلق الكون فان ثمة إشارات إلى كون الفكر الهندوسي قد تطور بعد ئذ متأثرا بالنظرة الصوفية وقد لحق الإله هذا التأثير الذي بدأ في (الأوبا نيشادة سفيتسفترا Svetasatara) وفكرته تقوم على تصور الإله السامي العظيم، وهي فكرة دينية تقوم على التجريد والاعتراف بالوحدانية كما ذكر، وما نقل من الجزء(٦-٢) منها ما يفيد الغرض المذكور :

قدس القداس الأعظم .

حاكم الحكام الكبير المتعالي
دعنا نعرف أن الرب المعبود رب العوالم .
هو العلة، رب أرباب حواس الأعضاء .
لا أب له ، ولا رب.
الله الواحد، الكامل في كل شيء.
مراقب الفعال ، قائم في كل شيء .
الذي هو خالق كل شيء، والمحيط بكل شيء مصدر نفسه.
هو حاكم المادة الأصلية، وحاكم الروح، وسيد الصفات .
إليه الذي خلق براهما قديما .
والذي هو .... الذي أعطاه الفيدات .
إلى هذا الآله الذي يضيء بفعله هو .
حينما يطوي الناس في الفضاء .
كما لو كان قطعة من الجلد.
حينئذ يكون نهاية الشر .
ما عدا معرفة الرب (٣٧) .

ومن ذلك الكتاب الذي يقول عنه " ول ديوارنت " أنه أقدم كتاب ظهر بين أشد الشعوب تمسكا بالدين " أورد من ترنيمة الخلق ما يفيد في إدراك منحنى التوحيد الإلهي، وتصور مبدأ الخلق في آن واحد .

"الواحد الأحد، لم يكن هناك سواه .
ولم يوجد سواه منذ ذلك الخير حتى اليوم .
كانت هناك ظلمة، وكان كل شيء في البداية تحت ستار
من ظلام عميق – محيط بغير ضياء –
والجرثومة لم تزل كامنة في اللحاء .

برزت طبيعة واحدة من الحر والحرور
ثم أضيف إلى الطبيعة الحب، وهو الينبوع الجديد
للعقل – نعم إن الشعراء في أعماقهم يدركون.
– إذ هم يتأملون – هذه الرابطة بين خالق
وعالم لم يخلق ، فهل جاءت هذه الشرارة من الأرض
تتخلل كل شيء ، أم جاءت من السماء؟
ثم بذرت الحبوب، ونهضت جبابرة القوى
فالطبيعة في أسفل ، والقدرة والإرادة أعلى–
من ذا الذي يعلم السر الدفين؟ ومن ذا أعلنه هاهنا؟
من أين ، من أين جاءت هذه الكائنات على اختلافها؟
إن الآلهة أنفسها صارت متأخرة في مراحل الوجود–
من ذا الذي يعلم أنى جاء هذا الوجود؟
إن من صدر عنه هذا الخلق العظيم
سواء خلقه بإرادته، أو صدر عنه وهو ساكن
إنه هو ربنا الأعلى في السموات العلى
إنه يعلم السر – بل لعله لا يعلم من السر شيئا " .

وان هذا الأمر وفق ذلك القصور قد لبث كما يذكر حتى أدركه مؤلفو أسفار " يوبا نشاد" فتناولوا هذه المشكلات بالحل (٣٨) .

وعلى خلاف ذلك الافتراض الروحي الذي يعد ثورة في الفكر الهندوسي – مقابل ما نراه من الطقوس التي تشيع في واقع الحياة في الهند ومنها تذكره موسوعة الأديان في العالم مما يتنافى مع المنحنى التوحيدي، فان (الجانستية) وهي ديانة كالبوذية قامت على خلاف نزعة البراهمية– على أساس الافتراض المادي لنشأة الكون.

حيث ترى أن المادة ذرية في تركيبها، وأنها لا تفنى ، وأن الزمن لا يفنى كذلك وإنما يمر بدورات لا يدركها العقل طولا ، وكل دورة ترتفع رويدا إلى ذروة من الخير ثم تنحدر من فلك لآخر يتردى باستمرار في الشر قبل أن تأخذ دوره في فلك جديد للخير وتستغرق هذه الدورة ملايين ملايين القرون.

وأن من البديهات الأولية أن جميع الأشياء الحية قابلة للتجسد ، وأن قانون العمل "كارما" يتحكم في كل حياة ... وان الهدف الأسمى لجميع المخلوقات هو بلوغ حالة انعدام الخلقة في مبدأ الخلود " نيرفانا " .

ومن أقوالهم في ذلك: أن كل الأشياء خالدة بطبيعتها" (٣٩) ، ومثل ذلك التصور ما تذهب إليه البوذية بالقول بأن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لذات قدسي، بل أنه مستقل لذاته ولا يتأثر بمؤثر بشري وآلهي.

وبالنسبة لـ (الزرادشتية) فإن زرادشت قدم في مناظرته مع الكهنة وبحضور "الملك كشتاسب" تصوره الفلسفي لنشأة الكون وصراع الخير والشر فيه، حيث أفاد بأن الخالق هو "أهورامزدا" اله الحكمة والحاكم الاسمي للعالم – وأن دورة العالم استمرت اثنى عشر ألف سنة، وفي أثناء الآلاف الثلاثة الأولى كان هناك عالمان متجاوران هما عالم (أهورامزدا) – عالم النور وعالم (أهرمان) عالم الظلام – وكان العالمان متناهيين من جوانب ثلاثة، ولكن كلا منهما يجد الآخر من الجانب الرابع ، وعالم النور في الجانب الأعلى، وعالم الظلمات في الجانب الأسفل، وبينهما فراغ مملوء بالهواء.

وقال أهورامزدا لأهرمان إن طرقك لا تتفق وطرقي، وأفكارك لا تتفق مع أفكاري وأعمالك ليست أعمالي، فلنفترق، وكان أهورا مزدا يعلم المستقبل فعرض على أهرمان حقبة من الحرب طولها تسعة آلاف سنة وقبل أهرمان العرض وهو لا يعرف غير الماضي ، وعندئذ قال أهورامزدا بان الجولة

ستنتهي بهزيمة عالم الظلمات، وفزع أهرمان ولم تنتـــه إلا وهــو يســقط فــي الظلمات، ويقضي فيها مشلولا مدة ثلاثة آلاف سنة، ثم بــدأ أهورامـــزدا- روح الخير- يخلق أرواحا طيبة تنسجم مع طبيعته ليستعين بها في مقابلة روح الشــر أهرمان.

وعلم أهرمان بذلك فخلق أرواحا شريرة من جنسه ليقاوم بـــها الأرواح الخيرة، ثم خلق أهورامزدا النجوم والكواكب وانتهى من خلق الأرض وعندمـــا انتهى من ذلك جعل الأرض حاجزا بينه وبين أهرمان وأعوانه، ولكن أهرمـــان شق الأرض وأخــذت منها فجوة فجمع بداخلها أعوانه الشريرين، ثــم صــارت ميدانا للصراع بين القوتين ... وعندما أتم خلق الأرض، خلق الثور الأول، ثــم الإنسان الأول (كيومرد) الذي هو أول البشر، وعندئذ ألقى أهرمان بقوته ضـــد خلق اهورامزدا، فنجس العناصر وخلق طوائف مــن الزواحـــف والحشــرات، وأقام أهورامزدا خندقا أمام السماء، ولكن أهرمان كرر لهجماته ونجح أخيرا فــي قتل الثور وكيومرد- أول البشر- (٤٠).

وعلى ذلك يبدو أن زرادشت قد خالف في هذا التصور لخلـــق الكــون الديانات السماوية التي لاتقر بصورتيــن للخلق، الخلق الخير، والخلق الشـــرير ولا الشراكة في خلق الوجود الكوني كمثــل ما هو بين أهورامـــزدا وأهرمـــان وهو ما يتعارض مع وحدة خلق الكون وكائناتها، ولا مع وجود كائن أو مخلــوق بشري آخر أعقب قتل أول الخلق كمثل ما سيلي بيانه.

خلق آدم..... وما كان من أمره

كما مر من العرض لخلق الكون في الكتاب المقدس فان المخلوق الأول – آدم – كان في اليوم السادس وانه أعقب خلق الأرض وأجناسها وثمارها لتكون في خدمة الإنسان الذي خلق على صورة الله وشبهه ليتسلطن على كل الأرض وجميع ما يدب عليها وعلى صورته خلق ذكرا وأنثى ، وبارك الله خلقهم وأجاز لهم أن يثمروا ويكثروا ليملأوا الأرض ويستعمروها، وأن آدم قد اسم امرأته حواء لأنها أم كل حي (تكوين ٣ : ٤) .

ويورد القرآن اعتراض الملائكة على خلق آدم كونهم قد أدوا واجبهم في خدمة الملكوت الإلهي وإنها الأجدر في ان يتولوا هذه المهمة حتى على الأرض ذاكرين أن بني آدم سيفسدون فيها ويسفكون الدماء فيما هم يسبحون بحمد الله ويقدسونه، وأقر الله بأن هذا المخلوق في شأنه أن يعلم من أسرار الحياة فيما يعلمونه ، وأذعن الملائكة في نهاية الأمر بعد أن أنبأهم آدم بأمر من الله علمه بما لم يعلموه .

{وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين* قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم* قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما تكتمون} . (البقرة: ٣٠ –٣٣)

وفيما أجاز الله لآدم وزوجته حواء أن يعيشا رغدا في الجنة- يأكلان من ثمارها ما خلا شجرة واحدة نهاهما عنها – فكانت لهما في إقامتهما فيـــها كـــل عوامل الحياة بمثل ما نوه القرآن الكريم :

{إن لك فيها ألا تجوع فيها ولا تعرى* وأنك لا تظمأوا فيها ولا تضحى} (طــه : ١١٨ – ١١٩).

غير أن الشيطان أغرى آدم وحواء أن يأكــلا من الشجرة التي نـــهاهما الله عنها: وقد صور الكتاب المقدس إبليس بـــ (الحية) التي قالت للمرأة : (لـــن تموتا ، بل الله أعلم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كــــالله عــارفين بالخير والشر، فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجـــة للعيــون، وأن الشجرة شهية للنظر فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلـــها أيضــا فــأكل، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لانفسهما مـآزر. (تكوين ٣ : ٣).

وفي هــذا الوصف لإغراء إبليس ما يتوافق مع ما ذكر القرآن الكريـــم فيما لم يذكر القرآن كون إبليس تمثل بصورة حية، فيما يشـــير إلـــى حقيقـــة عريهما حتى بدت ســـوأتهما، وأنـــهما بعدئـــذ {طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة} (الأعراف:٢٢) .

ويفصل الكتاب المقدس ما كان من اكتشاف الله لأمر آدم الذي اختبــــأ من وجه الرب الإله في وسط الشجرة، فنادى الرب الإله آدم وقــال اين أنـــت، قال سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان فاختبأت، فقال من أعلمك انـك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكــل منها، فبرر آدم فعلتــه لأن امرأته هي التي أعطته ليأكلا، وهو ما لــم يأت النص القرآني على ذكــره،

ولا ما كان من وعد الله للمرأة جراء انقيادها لأغراء إبليس وحثها لآدم للأكل معها من الشجرة الممنوعة، حيث أعلن الرب أن جزاءها في الأرض: " تكثيرا أكثر أتعاب حبلك بالوجع تلدين أولادا إلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك، ثم ليكون جزاء آدم وهو يسمع لقول امرأته ويأكل من الشجرة : (ملعونة الأرض بسببك بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكا وحسكا تنبت لك وتأكل عشب الحقل بعرق وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى تراب تعود) (تكوين ٣:٤) .

والقرآن الكريم يذكر قصة هبوط آدم إلى الأرض وما يكون في طلب آدم للتوبة ، وقبول الله لتوبته وما يلحق به من عذابات الصراع المرير لولده :

(وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم) (البقرة: ٣٦-٣٧) .

وعند التعرض لجملة الآراء حول طبيعة الجنة التي كان فيها آدم وهبط منها ، يذكر الآلوسي : أن ثمة من حمل "الهبوط" على الانتقال من بقعة لأخرى كما في (اهبطوا مصرا – البقرة :٦١) أو على ظاهره.

فيما قالوا أنه لا نزاع في أنه تعالى قد خلق آدم في الأرض ولم يذكر في القصة أنه نقله إلى السماء (يؤيد ذلك ما ورد في سفر التكوين عن خلق اليوم السادس) ، ولو كان نقله إليها لكان أولى بالذكر .

ويخلص مع ايراد سلسلة من الشواهد القرآنية إلى القول: إن الأدلة في ذلك متعارضة ، وإن الذي ذهب إليه ساداتنا الصوفية أنها في الأرض عند جبل الياقوت تحت خط الاستواء ويسمونها جنة المروج ، وهي الآن – كما نقول – موجودة – وأن العارفين يدخلونها اليوم بأرواحهم لا بأجسامهم ، ولو قالوا أنها

جنة المأوى (٤١) ، والواقع أننا نقرأ في القرآن عن وصف جنات في الأرض يتكرر في آيات كثيرة وفي سور شتى ، ولو كنا نتجارى في هذا الموضوع - تأييدا أو نفيا-لأدخلنا ذلك في جدل طويل لا طائلة منه ، ومثل ذلك ما يقال عن خلق آدم وحواء سوية ، أو بالانفراد ، أم خلقت من ضلع آدم ، .. أو ..

وقد أنحى القديس الرسول بولس باللائمة على آدم في الخطيئة التي قال: أنها أدخلت الموت الذي سرى إلى جميع البشر :

(والخطيئة دخلت في العالم بإنسان واحد ، وبالخطيئة دخل الموت ، وسرى الموت إلي جميع البشر لأنهم كلهم خطئوا .. وان الموت قد ساد البشر من أيام آدم إلى أيام موسى ، حتى الذين ما خطئوا مثل خطيئة آدم ، وكان آدم صورة لمن سيجيء بعده) (زوميه ٥ : ١٢- ١٤)

وفي الفكر الصابئي في قصة خلق آدم – مما ذكره عبد الرزاق الحسني ما يتماثل مع مجمل ما ورد في الكتاب المقدس والقرآن الكريم في ذلك فان آدم (كفر قد مايا) – أي أول أو (آدم يغره) – أي آدم المادي – قد خلقه الله في الأرض أنزل (أبتاهيل) وهو ابن (هيبل زيوا) – أي جبرائيل إلى الأرض فخلقه تشبيها على صورته من التراب، وخلق من ضلعه الأيسر زوجته حواء ثم أنزل الروح القدس في جسمي آدم وحواء.

وعلم الملائكة آدم كل ما في الدنيا من صنائع ومهن وإجراء المياه، ووضع عدد السنين والأشهر والأيام والأوقات وغير ذلك، وذلك خلاف ما ورد في الكتاب المقدس والقرآن الكريم وهو أن الله هو الذي علم آدم ذلك وأنزلت عليه الكتب المقدسة التي فيها فروض العبادة بأنواعها، ثم أمر ملائكته النار بالسجود لآدم فسجدوا إلا (هاوبشه) وهو إبليس إذ قال : خلقني الله من نار وخلق آدم من تراب فكيف أسجد له؟ فلعنه الله وطرده من الجنة ثم جرى

التناسل بين آدم وولده" (٤٢) ، وقد وردت في بعض النصوص الصابئية مثل ذلك: "وكشفت المعرفة لآدم وزوجته حواء وذريتهما"

"وامروا أن اتخذوا لأنفسكم أزواجا لكي تعمر وتكبر الدنيا بكم ".

وللقارئ أن يقارن بين هذا الذي ذكر عن خلق آدم في الصابئة، وذلك الذي سبق ذكره عن ذلك في الكتاب المقدس والقرآن الكريم .

وبالنسبة للزرادشتية فإنها تقر كما سبقت الإشارة بأن الإنسان قد خلق من قبل (أهورامزدا) – أله الخير) بعد أن أتم خلق الأرض وخلق الثور الأول، وأن أهرمان أثناء هجماته على أهورا مزدا قد نجح في قتل الثور كيومرد أول البشر، فيما كانت بذور كيومرد مخبأة في الأرض فنتج عند انقضاء أربعين سنة شجرة خرج منها أول زوجين من بني آدم، وهكذا بدأت فترة اختلاط الخير بالشر وأخذ البشر يلعبون دورا في الحرب بين مملكتي النور والظلام(٤٣)، وفي هذا التصور ما يخالف عقيدة الأديان السماوية في مسألة خلق الإنسان كما مر ذكره.

الملائكة وإبليس

في الحديث عن الملائكة وإبليس في الكتب السماوية، ما يشير إلى حقيقة كون (عالم الله) كما أسماه (بلي جراهام) كان عالما منقسما إلى منـــاطق نفــوذ يخضع كل منها لأشراف أحد الملائكـــة ورئيس سماوي مسؤول مباشرة أمـــام الله، ويخبرنا بولس عن عروش، وسادات ورياسات وســـلاطين فـــي العـــالمين المنظور وغير المنظور إذ يرد ذكر الملائكة ورؤساء الملائكة في عدة مناسـبات تبين انهم خاضعون لترتيب معين، كما أن بعضا منهم يفوق بعضا فـــي القــوة والسلطان، ويقال إن "ميخائيل" هو رئيس الملائكة .

ويورد التلمود نبذا عن وظائف الملائكة منها "حفظ الأعشاب الي تنبــت، وجلب النوم للإنسان ليلا" ويقول التلمود أن "ميتاترون" هو رئيـــس الملائكـــة، ملكا آخر يسمى "أمبائيل" ضرب بالنار ، وأن "جبرائيل" وحده يعلم بكل اللغـــات وهو علم يوسف كل لغات الدنيا السبعين، وأن باقي الملائكة فهي لا تفهم اللغـــة السريانية، ولا الكلدانية، وأن جهل الملائكة هاتين اللغتين مرجعة كما يذكـــر أن لدى اليهود صلاة يؤدونها باللغة الكلدانيـــة وأن الملائكة يجهلون هذه اللغة حتـى لا يحسدون اليهود على صلاتهم ...

وبالنسبة للتقسيم الوظيفي يرد في التلمود أن "جركيمـــو" ملـــك الـــبرد، و"ميكائيل" للمياه، و "جبريل" للنار وإنضاج الثمـــار (٤٥) ويتحـــدث الكتـــاب المقدس عن إبليس على أنه شخص يسيطـــر علـــى الأرواح الشريـــرة التـــي تحاول بدورها أن تهيمن وتضبط كل نشـــاط بشري رئيس ســـلطان الهـــواء

والروح الذي يعمل الآن في أبناء المعصية" (أفسس ١:٢) فهو يقابل هنا "أهرمان" في الزرادشتية .

ويحذر الكتاب المقدس من إبليس (فأصبحوا واسهروا لأن إبليس خصمكم كأسد زائر يجول ملتمسا من يبتلعه هو) (بطرس ٥ :٨) .

ويطلق العهد الجديد من الكتاب المقدس اسم(المجرب) على إبليس ، ويورد في ذلك قصته مع السيد المسيح حيث : "قاد الروح المقدس يسوع إلى البرية ليجربه إبليس، فصام أربعين يوما وأربعين ليلة حتى جاع، فدنا منه المجرب وقال له: "إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزا" فأجابه: يقول الكتاب " ما بالخبز وحده يحيا الإنسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الله ".

" وأخذه إبليس إلى المدينة المقدسة فأوقفه على شرفة الهيكل وقال له : "إن كنت ابن الله فألق بنفسك إلى الأسفل ، لأن الكتاب يقول : يوصي ملائكته بك، فيحملونك على أيديهم لئلا تصدم رجلك بحجر" فأجابه يسوع: يقول الكتاب: "لا تجرب الرب إلهك" .

"وأخذه إبليس إلى جبل عال جدا، فأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها وقال له: " أعطيك هذا كله إن سجدت لي وعبدتني" فأجابه يسوع: "ابتعد عني، يا شيطان، لأن الكتاب يقول : للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد" (متى ٤ : ١- ١١) .

وفي الصابئية نجد ما يفيد سبق خلق الملائكة في العالم الكوني وأنهم أسهموا في عملية خلق العالم ، فإنه لما تم خلق الأرض أنزلت الملائكة ، من عالم الأنوار (آلمي دنهورا) بذورا للأشجار وفتحت طريقا للهواء، ولماء الحياة الذي تقوم عليه حياة الأجسام الحية، وفتحت طريقا آخر للنور تستمد منه الشمس أشعتها لتنير بقية الكواكب .

وينـــوه الباحث خزعل الماجدي في دراسته عن جذور الديانة المندائيـــة إلى أنه قد تم تصور الآلهة جميعا على أنها كائنات مشعة يصدر عنها الضـــوء، وهو نفس التصور الذي اتفقت عليـــه الديانات التوحيدية للآلهـــة فـــي صـــورة الملائكة وهو ما ينطبق لى التصور الصابئي ، حيث يوصف الرب بأنه الحـــي، ويدل على أنه ملك عالم الأنوار (آلمي دنهورا) ويلقب أحيانـــا بملـــك الضـــوء (ملكي زيوا) الذي يسيطر على قوى النور العشرة وتنحـــــدر عنـــه الحيـــوات الفورية الأربعة، ويسيطر النور على الحياة الأولى والتي يرى فيها (مـــنرداهي وياور زيو) وهو ضوء النور مع (٨٠٠ ملاك نوراني) وان احتشاد الملائكـــة – كائنـــات النور في الدين الصابئي – يعطينا فكرة أساسية هـــي أن الملائكـــة كانت قبل التوحيد آلهة، فإنها كائنات نورية . (٤٦) ويؤيد ذلك ما يـــرد فـــي النصوص الصابئية : "تسبح ملائكة النور لملائكة النور الـــذي وهبـــها إيـــاه ". "وتسبح ملائكة الضياء برداء الضوء الذي وهبه الله إياه".

وتحتل الملائكة خيرا واسعا في النصوص القرآنية وما يختص بشـــأنها يماثل ما يرد في الكتاب المقدس، ومن المضامين الكلية للبـــلاغ القرآني نـــدرك أنهم الأجزاء الحيوية في منظومة الحرس الإلهي والكتبة الحافظين الذين يقفـــون عن يمين العرش الإلهي وبين جنبات السماء والأرض يملؤونها "شهبا وحرســـا شديدا" فلا يدعون شاردة ولا واردة إلا ويثبتون وقائعها في تقارير مفصلة ترفـــع إلى المقام الإلهي ، كما تبرز مهمة تقسيم العمل بين الملائكة مـــا بيـــن عـــالمي السماء والأرض ، وهي الوظيفة التي يرى دارسوا الإدارة الحديثـــة أنـــها مـــن ثمرات النهضة الصناعية الحديثة في عالم الأرض – ولنقرأ في ذلك .

{وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم} (الزمر : ٧٥).

{والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية} (الحاقة : ١٧) .

{قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم}. (السجدة: ١١) .

{عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم} (التحريم: ٦) .

{جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب} . (الرعد : ٢٣)

وترى جلال ذلك الاستعراض الملائكي أمام الله :

{يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا} . (النبأ: ٣٨).

وفي هذا ما يصدق وصف الأستاذ عبد الله يوسف للملائكة في ترجمة للآية القرآنية " والمدبرات أمرا " بأنهم "الجنود الممتثلون لربهم " . – the commands of their lords" (٤٧) .

وفي القرآن ما يثبت كون الملائكة رسل الله لأغراض شتى .

جاعل الملائكة رسلا" (فاطر : ١) .

{وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة} (البقرة : ٢٤٨)

{فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى} (آل عمران : ٣٩)

وقد ورد ذكر ذلك في الكتاب المقدس "الملائكة تبشر زكريا بميلاد يوحنا" (لوقا ١ : ٥ –٣٢) .

وللملائكة بعد ذلك دورهم في التبليغ الرسالي ، فهم رسل الله بينه وبين أنبيائه، ومن أرسلت إليه من عباده (إذا أصل الملائكة الرسالة) (٤٨).

وعن ماهيتهم يذكر الفخر الرازي في تفسيره : أن قول أكثر المسلمين أنها أجسام لطيفة هوائية تقدر على التشكل بأشكال مختلفة مسكنها السماوات (٤٩) وفي القرآن ما يثبت لهم هذا التشكل الهوائي :

"جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير" (فاطر: ١) .

وبالنسبة للأديان غير السماوية فان ظاهرة الملائكة تتفاوت في الإدراك حسب ما يتضح في نظام آلهتها، فبالنسبة للهندوسية فانه حيث يعد براهما هو الخالق ، فإن كلا من فيشنو وشيفا وأتباعهم من الإله يعدون بمثابة الملائكة المدبرين الذين يختص كل منهم بمهمة كونية محددة حيث حددت لـ "كرشنا وراما وبودا، وكاليكي" مهمات ووظائف هي موجودة من أجل إحلال صفته الربانية الطاهرة في النفوس ، ومحاربة الشراهة والهم، والنفس الخبيثة، والكبرياء، وذلك بواسطة تعاليمهم التي تحث على السلام والمثل الرفيعة في الحياة"

وبالنسبة للزرادشتية فان تلك الكائنات التي تحشد مع أهورامازدا – عالم النور – في مقابل أهرمان – عالم الظلام ، أما الشر – يمكن تمثلها على أنها ملائكة .

وبالنسبة لإبليس فان نصوص القرآن الكريم تؤيد ما ذكره الكتاب المقدس في شأنه مع آدم واغراؤه على نحوما ذكر.

.... وكذلك فيما يكون لابليس من دور مستمر في إغراء بني آدم وإغوائهم ليكون شيئا في اجتراحهم السيئات ودفعهم للشرور .

وقد قدم السيد المسيح مثلا حيا للمقارنة ما بين إبليس والملائكة في تفسيره"مثل الزؤان في الحقل" أن : الحقل هو العالم، والزرع الجيد هو أبناء الملكوت، والزؤان هو أبناء الشرير(إبليس) والعدو الذي زرع الزؤان هو إبليس، والحصاد هو نهاية العالم والحصادون هم الملائكة ، وكما يجمع الزراع الزؤان ويحرقه في النار، فكذلك تكون نهاية العالم... (متى ١٣ : ٣٨ – ٤١).

الجزاء - أو معتقد الدار الآخرة

تحتل فكرة أو معتقدات الجزاء وترتيباتها، المتصلة بالموت والحياة، والدار الآخرة – خيرا واسعا في التفكير الفلسفي الديني، وفي مراحل ممتدة من أعماق التاريخ، حيث شغل الاعتقاد بالدار الآخرة فكر الكثير من حكماء العهد القديم فيما سمي بـ (الولادة الجديدة) .

فقد كان "البوذا، وفيثاغورس" كما ذكر المؤرخ توينبي: يشتركان في عقيدة، هي أن الموت ليس نهاية الحياة، بل يتبعه عادة ثانية، وان هذه السلسلة من الوفاة بعد الأخرى تستمر إلى ما لانهاية، ما لم يتخذ إجراء صارم لكسر هذا الطوق المحزن.

وكان هذا هو الهدف المشترك لهذين الحكمين، وإن الفكرة القائلة بأن التواتر هو أساس الإيقاع في الكون تظهرها الظاهرة الطبيعية المألوفة توالي الليل والنهار، وتوالي الفصول في سلسلة معينة سنويا، واستبدال جيل بآخر.

وان الاعتقاد بالولادة الثانية متميز عن الاعتقاد العام بالتكرر(٥٠).

وان فكرة الحساب في نهاية المطاف قد راودت الإنسان ورافقت حياته منذ القدم، وقد ارتبط هذا الموقف بفكرته عن الآلهة، ثم فكرته عن "الخطيئة".

ويذكر الآثاري الفرنسي "جورج كونتنيو" بصدد ذلك: ان الفكرة البابلية عن الخطيئة– في نواح معينة– كانت مألوفة في كل دين... وأن معرفتنا عن

الموضوع لم تأت عن قوائم الخطيئات الشاملة، بل من كتب الاعترافات التي عددت فيها الخطايا.

"...وفي مصر وحيث كان الاعتراف مطلوباً في الحساب الأعظم بعد الموت، فان المؤمن يسلم بدور مضاعف، فيطلب من نفسه الا تغرق بالذنوب أمام الآلهة، وان المصري كان يقدم اعترافه باستعمال صيغة النفي، فهو يقول:

"لم أفعل هذا أو ذاك" .

"لم أفعل شيئا يكرهه الإله" .

" لم أحاب أي انسان ضد سيده، ولم أترك أي انسان خائفا، لم أقض على حياة في مدينتي قط، لم أرتكب فاحشة في المكان المقدس لإله مدينتي قط، لم أنقص كيل الحبوب قط، لم أسد مجرى الماء الجاري قط... ".

"أما في بلاد الرافدين كان الاعتراف أمرا شاقا، فلم يكن على المذنب أن يعترف بكل الخطايا التي لم يعلم أنه قد ارتكبها حسب، بل عليه أن يتلو بعض الخطايا الإضافية التي يمكنه أن يفكر فيها خشية أن يكون بعضها في خطاياه الخاصة التي ارتكبها عرضا أو دون وعي، وكان الاعتراف عن طريق وكالة الكاهن بسبب عدم قدرة التائب على اعطاء نفسه الغفران" (٥١)، ويشبه ذلك كما يبدو ما عرف بعدئذ "التعميد" حيث كان يوحنا المعمدان يمارس هذه المهمة زمن السيد المسيح عليه السلام وكان يقول: "أنا أعمدكم بالماء من أجل التوبة واما الذي يجيء بعدي فهو يعمدكم بالروح القدس والنار " (متى ج : ١١ –١٢) .

وقد دللت محتويات قبور ما سمي بـ (حضارة ام النار) نسبة إلى جزيرة أم النار–٢٠كم إلى الجنوب الشرقي من أبو ظبي – بأن سكانها كانوا قد اعتقدوا بان الموت لا ينهي الحياة بل ينقلها من العالم الأرضي إلى العالم العلوي، وهذا الاعتقاد متأثر بالمعتقدات العراقية، وأن الأديان السماوية قد

عززت ذلك المفهوم وكرسته في حياة الانسان بما يتفق ومنطلقها الاساس ضمن عقيدتها السماوية.

وبينما تذكر "موسوعة الديان في العالم " عن الهندوسية أنها لا تؤمن بحياة أخرى فيها جنة ونار وثواب وعقاب ، وإنما تربط معتقدها في مصير النفس بموضوع التناسخ، فالنفس تنتقل من بدن الى آخر واعمال الانسان هي التي تحدد مصير النفس، فاذا سلك سبيل الخير واتبع الفضائل انعتقت نفسه من دورة الحياة في الأبدال واتحدت بالروح الكلية وإلا تبقى في هذه الدورة متنقلة من بدن إلى آخر" ، فاننا نجد في ما تذكره عن "نظام الكرما" من عقائد الهندوسية ما يفيد أن جميع أعمال البشر الاختيارية – خيرا كانت أم شرا – لابد أن تجازى بالثواب أو العقاب طبقا لنا موسى العدل الصارم .

فنظام الكون (الهي) قائم على العدل المحض، وان العدل الكوني قضى بالجزاء لكل عمل،وان في الطبيعة نوعا من النظام لا يترك صغيرة ولا كبيرة من أعمال الناس بدون إحصاء ، وبعد إحصائها ينال كل شخص جزاءه عن عمله، ولكن يكون الجزاء في الحياة" (٥٢) ... وقراءتنا في نصوص المعتقدات الهندوسية تجعلنا ندرك إيمانهم بعالم الآخرة – وبأي شكل وصفوه – "المنزلق، التائب" وهو راغب في الاستقامة يبلغ "منطقة العدل" حيث يبقى سنين لا حصر لها، وحيث أنه ولد يبدأ حياة أخرى في بيت نقي بين الوادعين السعداء(جنة الخلد)، وعلى هذا يجاهد من جديد بأمل أوفى لبلوغ الكمال ، (من الباب الخامس _ عدم الاكترات بالتوبة) .

"هنالك دنيا تختلف عن دنيا الحس فهي اعلى وأعمق وأبعد غورا لا يبلغها البصر ولا تتغير" (الباب الثامن _ التدين بالنسك) .

"الذين لا يحبونم حياة دنيوية ولم يدخروا إلا أنفسهم في شبابهم مدخرا يموتـــــون كمالك الحزين على شاطئ بحيرة الأسماك فيه" (الدامايادا – ١٥٥).

" أبواب الجحيم التي يجتازها الناس إلى الهلال ثلاثة: باب الشهوة باب الغضـب، وباب البخل" (الباب السادس عشر– الديني والدنيوي) (٥٧)

وللهندوسية كما يذكر إله الموت تسميته (ديفا Diva) ونجد في المقـــــرر التالي من المعتقدات الهندوسية أن :

"ثمرة الأعمال تضاعف ثلاث مرات في الحياة القادمة سواء أكانت حسنة أم سيئة، أو مزيجة من كليهما، ولا ثمرة بلا عمل ابدا" مقاربة من مبدأ مضاعفـة الحسنات كما في المعتقد الإسلامي مع خلاف في العد" .

(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) (٧:١٦) ، ومخالفة لها فـــي عـــدم مســـاواة الحسنة بالسيئة بالجزاء أو مزيجهما: (من جاء بالسيئة فلا يجـــزى إلا مثلـــها) (المؤمن :٤)

وبالنسبة للبوذية : ذكر أن لها إلها للموت مشابه لما في الهندوسية وبمـــا يفيـد بمحاكمة الذات إمام الإله "ياما" بعد الموت :

" يخطئ المرء في العقل وفي الكلمة وفي التفكير،ثم حالما يتفتـت الجسـد بعـد الموت ويقوم بطريقة مفزعة، مقدمة إياه للعقاب .

الحفظة أمام (Yamama) مجردا من بنيه، خلوا من الاحترام للأشـــياء الجليلـــة والمقدسة يؤنبه ياما قائلا: اذكر أيها الإنسان ألم تر ظاهرا بين النـــاس رســـولنا الأول، فالثاني، فالثالث ، لا لا يا سيدي ، ألم تـــر شـــيخا ومســـنة مريضـــا أو مريضة، أو ميتا أو ميتة؟ ، أرأيت يا سيدي اذكر أيها الإنسان، ألم يحدث هذا لك تحذيرا وعبرة فيقول : سأكون مثلهم أيضا، سأفعل الطيبات في العمـــل والقـــول

والتفكير ، لم أفعل يا سيدي، كنت مهملا ، اذكر أيها الإنسان أنــــه بنـــاء علـــى إهمالك يفعلون بك، وا أسفاه، فهذه أفعال لم تقم بـــــها أم ولا أب ولا أخـــت ولا صديق أو زميل أو قريب سواك، نعم أتيت بهذه الأفعال، فأنت الآن تجني نتـــائج ما كان " .

وجاء في ٠(لأنجترانيكايا – الرابعة)

" لا مكان لأحد يستطيع إخفاء جريدته...، بالنفس فيك أيها الإنســـــان ، تعرف ما هو صحيح ، وما هو زائف" (٥٣).

وبإزاء ذلك فان في الأقوال المنسوبة لبوذا ما يشير إلى غير ذلك النفـس الروحي الذي مر ذكـــره في مسألة الجزاء فيما يبدو أن ذلك كان تطـــورا فـــي الفكر البوذي مماثل لمـــا تم في الفكر الهندوسي حيث أن ناموس الطبيعة كمـــا نقل عن بوذا هو الذي يسيطر على كل شيء، وهو يقضي بان لا يدوم العـــذاب والجحيم الى ما لانهاية، فلا تدوم الجنة ولا النعيم ومهما طال عـــــهدها فانـــهما زائلان، وأن كل من لا يتمسك بالأخوة العامة والمحبة الشاملة مع سائر الخلـــق فإن ناموس الطبيعة يعاقب أشد العقاب، وأن ناموس الطبيعة ليس بخاضع لـــذات قدسي يتصرف فيه كما يشاء ، بل ذلك الناموس مستقل بذاته، نــــافذ بنفســـه، لا يتأثر بمؤثر بشري أو إلهي أبدا (٥٤) .

وإنما دعي بـــ (جنة النفوس) يتجارى مع ما ذهب إليه الأستاذ مصطفـــى محمد من الاستنتاج بأن: كل ما جاء عن الجنة والنار ما هو إلا تقريب المعـــاني المستحيلة بقدر الإمكان وأن الجنة صورة ومقـــام تشتمل على جميع الدرجـــات من المتع الحسية ارتفاعا حتى المتع الروحية الخالصة، فيما يكون العذاب لـــزوم وما يلزم وحلول الصفة بموصوفها، وانتظام الأرواح في سلم درجاتها الحق...

وأن العذاب يأتي من إحساس من هم أسافل الدرجات بالغيرة والهوان والخسران الأبدي ... ويحرق هذا الاحساس الصدور كما تحرقها النار وأكثر، وسوف يكون هذا النكال والتنكيل، ينكل الواحد منا بنفسه بالدرجة التي وضع نفسه فيها والتي أعذر إليها بأعماله في الدنيا" (٥٥).

ويتفق ذلك مع ما يدعوه د. محمد عبد الله دراز بـ (سلطان الضمير) الذي يقول عنه أنه : لا ينتهي بانتهاء هذه الحياة، بل أن له دورا هاما عند المحاسبة في دار الجزاء حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء ويصدر حكمة على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الإلهي (٥٦) .

وتقدم الزرادشتية تصورا لعملية الجزاء يتقارب من حيث المضمون مع المنطق الديني السماوي، ويختلف عنه في إفتراق عالمي الجزاء للخير والشر فيما يبدو وكان معترك الصراع ما بين روح الخير وروح الشر، ففي تقدير زرادشت كما ذكر، أن الانسان خلق حر الإرادة يختار بين الخير والشر، وأن الافكار التي يفكر بها، وكل الكلمات التي يقولها، والأفعال التي يأتيها كل يوم من ايام حياته مكتوبة في كتاب الحياة، فالأفكار والكلمات والأفعال الصالحة مكتوبة في جانب، والأفكار والكلمات والأفعال الخبيثة مكتوبة في الجانب الآخر، وعندما يموت الإنسان تذهب روحه الى الحفيظ على كتاب الحياة.

فإذا كانت أفكاره وكلماته وأفعاله الخيرة أعظم من أفكاره وكلماته وأعماله الخبيثة ذهبت الى الجنة، وإلا ذهبت إلى عذاب الجحيم ...

وفي يوم الحساب ينتصر الإله الواحد على الشر عندئذ يبعث الموتى ويقع المذنب على الأرض فتشتعل وتذوب جميع المعادن فتنتشر على الأرض كأنها سيل ملتهب وعلى كل الناس الأحياء والأموات المبعوثين أن يعبروا مجرى السيل الذي يبدو للأرواح الخيرة وكأنه لبن دافئ فيطرهم المرور به

ويمضون منه إلى الجنة، أما الأرواح الشريرة فتظل تحترق الى الأبد خالدة في المعدن الملتهب وعندئذ يطرد الإله الخير روح الشر وكلمن يتبعه من الأرواح الخبيثة الى وسط الأرض ويدعها فيها إلى الأبد ... وفي ذلك اليوم يبدأ العالم السعيد الخير الذي لا شر فيه ويدوم سرمديا" (٥٧) .

وفي الأديان السماوية : تتأكد مسألة الإيمان بالدار الآخرة على نحو منتظم يتوافق مع منطلقها في تقرير الصيغة الاندماجية بين حياة الأرض والسماء ضمن مبادئ وأصول تتحدد بمقتضاها سيرة المؤمن في الحياة الدنيا، وعلاقتهم بالسماء ، تلك العلاقة التي تقتضي الإيمان بـ(الدار الآخرة) كحياة تالية ومكملة لوجود الإنسان على الأرض، بل إنها حياة الخلود هنا.

وتعبر جملة مطالب التقوى، أو العمل الصالح والتي ترد في سياق النصوص الدينية وأحكامها التفصيلية عن جوهر ومضمون نظرية الأخلاق، أو السلوك الإيماني، والتي تستهدف تكوين نمط من السلوك المرتهن لضوابط ومحددات مثالية تتصل بكل جوانب نشاط وحركة الانسان في الحياة الدنيا، مع نفسه، ومع الآخرين بانسجام وتوافق بين دخيلة النفس وظاهر السلوك .

ونجد أن الجزاء يمثل مقابلة موضوعية بين الفعل والنتيجة، تجعل الحياة الدنيوية بمثابة مرحلة اختبار لارادة الإنسان وتحمل أفعاله يرى بعدها النتيجة والحكم بصورة "جزاء" يقابل حسناته او سيئاته.

{ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى} (النجم: ٣١)

{ ليجزي الله كل نفس ما كسبت} . (إبراهيم : ٥١)

- الشرير تأخذ آثامه ، وبحبال خطيئته يمسك- (أمثال ٥:٢٢)

- ازرعوا لأنفسكم بالبر احصدوا بحسب الصلاح - (هوشع ١٢:١٠)

- اعمل عملك في حينه وسيعطيك الثواب وقعه - (سفر الحكمة)

- دينوا كل واحد بحسب أعماله - (رؤيا ٣١: ٢٠)

ويعتبر الصابئة المندائيون، من بين أهل الأديان الذين يعتقدون بمحاسبة الأرواح، فالانسان عندما يموت تنتقل روحه إلى العالم الآخر، فالجسد فان والروح باقية، وفي العالم الآخر تحاسب هذه الروح وتوزن أعمالها فاذا كانت الحسنات كثيرة تصعد الروح الى عالم الأنوار، وان كانت السيئات كثيرة فان الروح تذهب الى عالم المظهر (المطراثة) في عالم الظلام حيث تذهب في رحلة تمر بها بسبع محطات تسمى (عوالم الحساب) وهي عوالم شريرة تعرقل صعود الروح وتمسك كل روح خاطئة.

وكلما كانت الروح قد استوفت مسبقا مسلتزمات الميت من غسل وتكفن وطهارة وما إليها من شعائر دينية، فيرافق الروح مخلص (فارقا) ليحرر هذه الروح التي تخضع لقرار يقتدره الملك (اباثر) الموكل بالميزان قبل أن يقودها دليل المعابر والمسالك الخطرة، ثم الدخول بها الى عالم النور عبر المسالك الخطرة حيث تتسلم كساء نوارنيا و'كليلا وبذلك تعود الروح إلى عالم النور .

ويذكر الصابئة أربعة عوالم اخروية هي (عالم النور - آلمي دنهورا) عالم الظلام- آلمي دهشوخا - عالم المطهر - مطرنا - عالم العهد - كشوني كشطة - وهذا الأخير هو العالم المثالي أو موطن الانسان السماوي (الجنة) وفيه مخلوقات وأشياء سماوية تقابل بل تشابه بالضبط ما على الأرض، ويكون موقعها في الشمال من الكون حيث تقع عالم النور.

ويشبه هذا العالم كما يشير الباحث خزعل الماجدي ما تحدثت به النظريات العلمية لعالم اسمته: العالم المضاد للمادة Antimeterial " فيما كانت هناك في التراث السومري كما يذكر ايضا عوامل أربعة هي (عوالم النوناكي،

والأيجيجي – وهي عوالم الهية فقط – ودلمون – وهي الجنة السومرية التي فيها الخلود – وادنو أو أدن – وهي السهل الأخضر، ومنها اشتق العبريون اسم عدن أو جنة عدن) وهي كما ترد في القرآن الكريم وأخيرا العالم الأسفل الذي له عدة أسماء منها "كيكال" أي الأرض العظيمة – وهي عالم الموت).

ويتساءل الماجدي فيما لو كانت المندائية قد أخذت هذه العوامل الأربعة من السومرية ثم اعطتها وظائف أخرى – خصوصا الثلاثة الأولى منها، ولعل هذه الوظائف أتت من الغنوصية أيضا، فيما يرى أن هناك ملامح متشابهة في بعض عقائد ما بعد الموت المندائية والمصرية القديمة وخصوصا العقاب والثواب (٥٩) والواقع أننا لو استجمعنا كل موارد التراث القديم والمتقدم منه وقارنا بينا لتوصلنا إلى جملة من القواسم المشتركة بينها في هذا المجال وسواه مما أشرنا إليه أو لم نشر .

والنصوص التالية الواردة في (باب صلاة على راحة نفس الميت) من سيدنا آدم (كنزاربا) – تعطي تصورا مبسطا لوقوف النفس في ساحة المحاسبة ما بين النور الإلهي والملائكة الأثيرين، ودور آدم في تسلم النفس وهي في ضيافة الجسد حتى تكمل حسابها لتحلق بمحررها في عالم الخلود:

"حين وقفت النفس بين النور الإلهي وبين الملائكة الأثيرين سؤلت وقيل لها:

"تكلمي ايتها النفس من بناك وأتم بناءك؟

"من هو المنشئ والباني والمكون؟

"من أوجدك ..؟

قالت النفس لمن سألها:

" ابي ، وهو واحد، هو الذي خلقني ، ثم أخذني أحد الطيبين المخصيين، فلفني بردائه من نور وسلمني لآدم، وحللت الجسد يعذبه ومرارته وعلاقة وبقيت أنتظر في ضيافة الجسد حتى أكملت قدري"

"حين أكملت النفس قدرها جاء من يحررها، ولحقت النفس بمحررها الى عالم الخلود الذي لا تغرب شمسه ولا يداخل نوره ظلام"

" إلى المكان الذين تقوموا بالصباغة وارتسموا برسم الله، المكان النوراني الأعظم والدار الباقية"

ونجد في الكتاب المقدس- كما هو الحال في القرآن الكريم- ما يشير الى حتمية الجزاء للإنسان في الدار الآخرة، حيث أن :

(كل واحد سيحمل حمل نفسه) (غلاطية ٦ :٥)

(كل واحد يموت بذنبه) (أرقية ٣١ : ٣١)

- وهو مصداق لما نص عليه القرآن الكريم :

{يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره * ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} . (الزلزلة ٦ :٨)

{من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون} (الجاثية :١٥)

وان الله يحاسب بالحق عباده إذ :

"يحاسب المسكبرين، واما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (بطرس ٥: ٥)

ويوم الحساب تشهد على الانسان جوارحه:

" إن فمك يستذنبك لا أنا وشفتيك تشهد عليك" (ايوب ١٥ :٦)

ويجزي ذلك مجرى التوافق مع ما يرد في البلاغ القرآني:

{حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون} . (فصلت ٢٠ : ٢١)

ويرد الوصف جزلا في القرآن لما يقدم للمتقين وذوي الأعمال الصالحة من ألوان المتع والمباهج تشويقا وترغيبا لهم ليحفظوا بالفوز بالجنة :

{فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا * متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا * ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا * ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا * قواريرا من فضة قدروها تقديرا * ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا * عينا فيها تسمى سلسبيلا * ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا * وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا * عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا * إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا}
(الانسان- ١١ : ٢٢)

مقابل ذلك يلقى الآثمون، الطاغون، ومقترفو السيئات من أصناف العذاب والشدة والضنك:

{إنا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالا وسعيرا}. (الإنسان : ٤)

{إن جهنم كانت مرصادا * للطاغين مآبا * لابثين فيها أحقابا * لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا * إلا حميما وغساقا * جزاء وفاقا} . (النبأ: ٢١ – ٢٦)

... والكثير من ذلك المتفرق في ثنايا سور متعـــددة لا يســع المجــال لإيرادها .

وقدم السيد المسيح وصفا مقتضبا لما يكون للناس في الجنة والجحيم فــي مثاله "زؤان الحقل" .

" ... فذلك يكون في نهاية العالم، يرسل ابن الإنسان ملائكـــة، فيجمعــون مــن ملكوته كل المفسدين والأشرار ويرمونهم في أتون النار ، فهناك البكاء وصريف الأسنان وأما الأبرار فيشرقون كالشمس في ملكوت أبيهم فمن كــان لــه أذنــان فليسمع " (متى ٣: ١ : ٤١ – ٤٣)

كذلك فإنه عليه السلام قد ذكر عن بعض ما يكون يوم القيامة:

" أنتم في ضلال لأنكم تجهلون الكتب المقدســة وقــدرة الله ، ففــي القيامــة لا يتزاوجون بل يكونون مثل الملائكة في السماء، وإما قيامة الأموات، أما قرأتم ما قال الله بكم: انا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب، وما كان الله اله أموات، بـل إله إحياء" (متى ٢١ : ٢٩ – ٣٢)

ويتوافق ذلك مع الكثير مما يرد في القرآن الكريــم والحديــث النبــوي الشريف، ولو أردنا أن نسترسل مع موارد الجزاء واحكامها في كلا الشـــريعتين لاقتضانا ذلك بحثا كاملا مستفيضا .

الطوفان

ويمثل الطوفان حدثا هاما في التاريخ الإنساني عامة وفي التاريخ الرسالي خاصة لارتباطه بأحداث وشخوص لها دورها في صنع ذلك التاريخ وإنها كانت من دلائل الامتثال للمطلب الإلهي الذي جسده النبي نوح عليه السلام في إذعان لأمر الله بصنع السفينة مواجها سخرية قومه منه كما سيرد بيانه، وإن نوحا يمثل جيل النبوة الأول، وسلالته تمثل الجذر الأساس للكائنات الإنسانية الحالية، إذ تنسب جملة البشر الآن الى أولاده، سام، وحام، ويام، أديافث.

ومعاناة نوح مع قومه تمثل المشهد الأول من مشاهد العناء الرسالي ومثابرته في صنع السفينة بالمواصفات التي يرد ذكرها في الكتاب المقدس، مع مثابرته في دفع الشر عن بني جنسه وما احتمله من عصيان ولده وغرقه في غمرة الطوفان- تمثل في مجملها عنوانا لكبرياء النبوة في مواجهة الأعباء وإخلاصا في وظيفتها وبالجملة فان أحداث الطوفان والتي شغلت في الجانب الآخر جزءا من الشعر القصصي لجلحاش تمثل شاهدا آخر من شواهد التوافق في إيراد الأحداث التي يشترك في سردها الكتاب المقدس بحصة أوفر، ومع القرآن الكريم بفارق بسيط في إيراد جزئيات هذا الحدث الهام ، فيما يقارب الفكر الصابئ ما يروى التوراة في ذلك.

يروي الكتاب المقدس أن نوحا كان رجلا بارا كاملا في أجياله، وأنه حيث رأى الله أن الأرض قد فسدت فانه قال لنوح إن نهاية العالم قد أتت أمامي

فها أنا مهلكهم مع الأرض، اصنع لنفسك فلكا من خشب حفر واوحى له بطريقة صنعها تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار وهكذا تصنعه ثلاثة مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعا عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه، وتصنع كوا للفلك وتكمله الى حد ذراع من فوق وتصنع باب الفلك في جانبيه، مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله ...

وها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح كل ما في الأرض يموت... وأقيم عهدي معك فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من ذي جسد اثنين من كل تدخل الى الفلك لاستبقائها معك ، تكون ذكرا وأنثى من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ... وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك فيكون لك ولها طعاما ففعل نوح حسب ما أمره به الله" . (التكوين - الإصحاح السادس)

وبينما يعزي الكتاب المقدس سبب الطوفان كما مر إلى فساد أهل الأرض كلهم، فإن القرآن الكريم يشير إلى أن الله قد أوحى إلى نوح "أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم" وان امتثل لأمر الله بإنذارهم المرة تلو المرة لعاقبة عدم عبادتهم الله وطاعته وتمنيتهم بما يكون لهم من ذلك من غفران الله وإنعامه لهم إن تابوا إلى رشدهم، دون أن يجد فيهم إصغاء لدعوته.

{إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم * قال يا قوم إني لكم نذير مبين * أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون * يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون * قال رب إني دعوت قومي ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعاءي إلا فرارا * وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا * ثم إني

دعوتهم جهارا * ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا * فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا * يرسل السماء عليكم مدرارا * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا * ما لكم لا ترجون لله وقارا }. (نوح ١: ١٣)

ثم أن نوحا شكا إلى الله ما كان من أمره معهم فيما يبدو أنهم أصروا على عبادة الأوثان – فقال لربه:

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا * ومكروا مكرا كبارا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا} (نوح ٢١ – ٢٤)

وكان ذلك سببا لإغراقهم بالطوفان وليجر عليهم العذاب استجابة لدعاء نوح بأن يستأصل شافتهم لئلا يضلوا عباد الله من بعدهم:

{مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا * رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا} (نوح ٢٤ – ٢٨)

وفيما يذكر القرآن التفاصيل التي سردها الكتاب المقدس عن وضع السفينة التي صنعها نوح بمثل ما مر ذكره وما اشتمله أجناس الكائنات الحية التي ادخلها معه حفاظا على بقائها مع أهله، فان الكتاب المقدس لم يشر إلى ما كان من أمر ابن نوح الذي عصا أمره بالركوب معه في السفينة متذرعا في أنه

سيلجأ إلى مكان أمين يحصنه من الغرق، فكان ان غرق وان الله لـــم يستجب لدعوة نوح واستعطافه لنجاة ابنه، داعيا إياه أن يتبرأ منه كونه قد عد من غـــير الصالحين .

{وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين * قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين} (هود: ٤٢-٤٣)

{ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين * قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسئلن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين} (هود : ٤٥ – ٤٦)

وقد سبقت ذلك إشارة القرآن إلى ما كان من أمر نوح مع قومـــه وهـــم يشاهدونه يعمل السفينة في برية خالية لا ماء فيها فكانوا يسخرون منـــه، وهـــو ينذرهم بما سيكون من عاقبة أمرهم.

{ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون * فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم} . (هـود : ٣٨ – ٣٩)

... ويمضي الكتاب المقدس في ذكر أحداث الطوفان مشيرا إلى أن مياه الطوفـان صارت بعد السبعة أيام على الأرض وانفتحت طاقات الســـماء وكـــان المطـــر أربعين يوما وأربعين ليلة، وفي ذلك اليوم عينه دخل نوح، وسام، وحام، ويـــافث – بنو نوح – وامرأته وثلاث نساء بنيه معهم الى الفلك وكل الوحوش وقد تغطت

جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء خمس عشر ذراعا من الارتفاع، حتى مات كل جسد كان يدب على الأرض، ولم يبق إلا نوح، والذين معه في الفلك، واستقر الفلك في الشهر السابع من اليوم السابع عشر منه على جبال أراراط – وتقع شمال آشور واسمها في التركية أغرى– داغ، وأطلق عليها القرآن اسم الجودي :

واستوت على الجودي، وقيل بعدا للقوم الظالمين (هود : ٤٤)

... وبينما يفصل الكتاب المقدس في ذكر الحيوانات التي اصطحبها نوح معه في الفلك فإن القرآن لم يورد ذكر ذلك، وأن حديث الطوفان عند الصابئة يعد قريبا كما ذكر كل القرب مما يروي الكتاب المقدس حتى في إطلاق الغراب والحمامة، إلا أنهم يقولون أن الحيوانات التي اصطحبها نوح في الفلك كانت اثنين اثنين، ذكرا وأنثى من كل نوع، وأن الذين كانوا معه في الفلك من البشر ثلاثة فقط وهم: نوح، وامرأته، وابنه سام ، إذ لم يكن له قبل الطوفان ولد آخر، وأن نوحا لما انحسر الماء نزل إلى اليابسة وحده يتمشى فاذا بامرأة من الجن تراءت له بشكل امرأة، وأخذت تتمشى بجانبه فأنكر نوح خروجها من السفينة دون إذن منه، فقالت له إنها سئمت المقام في الفلك، ثم دنت منه وأخذت تغازله حتى استدرجته الى المعصية ظنا منه أنها زوجته فوافاه صوت من (اوثار) يؤنبه على ما فعل فعاد الى الفلك وأخرج كل من كان فيه وحملت المرأة ووضعت له ثلاثة بنين هم: حام ويافث ويامين، وكان كل منهم يتكلم بلغة تخالف الآخر، ومن بين هؤلاء الثلاثة كما يرون– جاء السودانيون، والفرنجة، والترك، وعلى ذلك فان الصابئة لا يذكرون نوحا ولا أحد من ابنائه الثلاثة (حام، ويافث، ويامين) ضمن من يستغيثون من ابائهم الأولين، لأن (أوثارا) كان قد عاقب نوحا على أن يبقى مرتهنا بـ (المطراثي) الى أن ينقضي العالم ... ولكهنم كانوا يقرون بولده سام الذي كان معه في الفلك ويكرمونه أحسن تكريم(٦٠).

وقد تنزه القرآن عن ذكر مثل ذلك عن نوح النبي وعن مثل ما ذكره العهد القديم من الكتاب المقدس من أن نوحا ابتدأ يكون فلاحا وغرس كرما، وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على اكتافهما ومشيا الى الوراء وستروا عورة أبيهما ووجهاه الى الوراء فلما استيقظ نوح من خمره وعلم ما فعل به ابنه الصغير فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته) (تكوين : ٩)

ومثل ذلك ما ذكر من أخبار الرب لهاجر بان ولدها اسماعيل سيكون إنسانا وحشيا يده على كل واحد عليه وإمام جميع اخوته يسكن" (تكوين : ١٤). فيما تنزه القرآن عن ذكر مثل ذلك ضمن منهجه في تنزيل الأنبياء والرسل جميعا وعلى نحو لم يغرق فيه ما بين أبناء النبي إبراهيم كلهم ومن سبقهم وتلاهم من الأنبياء بالإشارة والتمجيد.

واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا * إذ قال لأبيه ياأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا * ياأبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا * ياأبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمان عصيا * ياأبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمان فتكون للشيطان وليا * قال أراغب أنت عن آلهتي ياإبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا * قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيا * وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا * فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا * واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيا * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجيا * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيا * واذكر في الكتاب

إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا * واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا * ورفعناه مكانا عليا * أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمان خروا سجدا وبكيا}. (مريم ٤١ – ٥٨)

وتجد في العهد الجديد من الكتاب المقدس ذكر السيد المسيح لبعض ما كان أيام الطوفان منوها إلى أن مجيء ابن الإنسان سيكون بمثل ما يكون في أيام الطوفان.

(وكما حدث في ايام نوح كذلك يحدث عند مجيء ابن الإنسان كان الناس في الأيام التي سبقت الطوفان يأكلون ويشربون ويتزاوجون، الى يوم دخل نوح الفلك، وما كانوا ينتظرن شيئا ، حتى جاء الطوفان فأغرقهم كلهم وهكذا يحدث عند مجيء ابن الإنسان، فيكون رجلان في الحقل، فيؤخذ أحدهما ويترك الآخر، وتكون امرأتان على حجر الطحن، فتؤخذ إحداهما وتترك الأخرى). (متى ٢٤: ٣٦ : ٤٠)

ومن غرائب الاتفاق وكما ذكر فانه قد اكتشفت على ألواح وجدت بأطلال مكتبة آشور بانيبال بنينوى قصة للطوفان اكتشفها الأثري "جورج سميث" تضمنها الشعر القصصي عن جلجاش يفيد بما أصاب أرض الرافدين من دمار نتيجة الطوفان وفيها من التفاصيل ما يشه ما ورد في الكتاب المقدس ، وبضمنها اطلاق الحمامة وعصفور الجنة، ثم الغداف الذي راح ولم يعد، منوها فيها الى ان السفينة اتخذت مجراها الى أرض بنيصير "Nisir" وأمسكت بالسفينة أرض جبل فيها .. الخ (٦) .

إبراهيم وبنوه

يعتبر النبي ابراهيم مؤسس ومرشد الفكر التوحيدي للأديان السماوية الحاضرة ، تستذكر شرائعها دوره ودور بنيه - إسماعيل واسحق ويعقوب - في بناء وتركيز قاعدة الدين القائم على الوحدانية ، وعلى ذلك فان لإبراهيم وبنيه استذكارا خاصا في سيرتهم ومنهجهم في الكتب السماوية ، وفي أحاديث الأنبياء .

والملاحظ أن هناك تناوبا ما بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم في سرد تفاصيل السيرة الإبراهيمية في مرحلتيها ، ما أعقب الهجرة التالية الى الجزيرة ، وما سبقها في أرض كنعان ، وقد أوفى العهد القديم من الكتاب المقدس المهلة الأولى من حياة ابراهيم (ابرام) قدرا من التفصيل ليذكر ما كان من شأنه من بدء نزوحه وزوجته وابن أخيه لوط من حاران (حران) إلى أرض كنعان ليبني مذبحا للرب وينصب خيمته في بيت ايل - بين القدس إلى نابلس - ثم انحداره إلى مصر بعد أن حدث الجوع في أرضه .

وما كان من قصته مع فرعون والذي ذكر الكتاب المقدس أنه أخذ امرأته ساراي إلى بيته وهو لا يعلم إنها زوجة إبراهيم حتى ضربه الله بضربات موجعة فأرجع لإبراهيم زوجته ليرحل من مصر مع امراته ولوط وكل ما كان له الى الجنوب للمكان الذي كانت خيمته فيه في البداءة بين ايل وتماي (التل).

ويشير الى افتراق ابراهيم عن لوط بسبب نزاع حصل بين رعاة مواشيهما فسكن ابراهيم في ارض كنعان ، وسكن لوط في مدن الدائرة (الأردن) ونقل خيامه الى سدوم (إحدى مدن السهل) والتي احترقت بسبب

خطيئة أهلها – وعلى ذلك النحو الذي ذكر القرآن تفاصيله – فيما أقام إبراهيم بعدئذ عند بلوطات ممرا في حبرون (مدينة الخليل) ..

ويتوقف الكتاب المقدس عند ذلك الحد من المرحلة الأولى لحياة إبراهيم في أرض كنعان مضيفا اليها احداثا خاصة كمثل ما كان من شانه مع امرأتيه ساراي (سارة) وهاجر ، وما كان من امتحان الله له بدعوته لذبح ولده اسحق – الذي تختلف الرواية الإسلامية عن الرواية الإسرائيلية في هل هو إسحق أم إسماعيل ، وكذلك في مكان الذبح في ارض الجزيرة ام في أرض كنعان – فيما لم يرد اسم الذبيح ولا مكانه في النص القرآني مما جرهو الآخر إلى قدر من الاجتهاد، وهو ما سنعرض عنه صفحا لعدم ملاءمته لموضوع بحثنا .

ومقابل ذلك فإن القرآن يستعرض بتفصيل ما كان من أمر ابراهيم مع أبيه آزر وقومه بشأن عبادة الأوثان ليهجرهم إلى عبادة الله الواحد بعد أن استقرت في نفسه موجبات الإيمان التي حاجج ابراهيم بها قومه وما تلقاه من العنت الذي انتهى إلى إلقائه بالنار جراء قيامه بتكسير أصنام قومه ، ثم ما كان على يديه من تثبيت دعائم التوحيد في مكة وحواليها وبنائه لمقام التوحيد في مكة، ودعوته للحج الى كعبتها ، وهو ما يستغرق حيزا كبيرا من مجمل السرد القرآني الذي ركز على هذه الناحية بما يفيد في توضيح منطلقات الفكر التوحيدي ومعالمه الحيوية التي أقام صرحها سيد الأنبياء الموحدين ابراهيم الخليل والقدس ، وإبراهيم الكعبة المشرفة ، حيث امتثلت الرسالات السماوية – اليهودية ، والمسيحية ، والإسلامية ، والصابئية – لدعوة رائد مسيرتها التوحيدية، ليكون اله إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب إلههم جميعا ، ولتكون صحف ابراهيم وشريعته مرجعهم وموئلهم .

وليس من كتبهم المقدسة الاوفيه ما ينطق بما ينطق، وليس من أنبيائهم

الا وقد انحدر من أنساله الذين توارثوا الشريعة وحيا متكاملا ، فتتابع الحلقـــات في سلسلة رسالية تمتد من نوح ، فإبراهيم وبنوه حتى محمد :

{إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناها عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما} . (النساء: ١٦٣-١٦٥) .

شريعة وضحت فيها دلالة الشواهد ، ودلالة الأحكام علـــى قـــدر مـــن التوافق ينبئ بأن وحدة الشرائع قائمة بين كل رسالات السماء، وهي تستمد مـــن وحي السماء مثلها الأعلى ..

وستكون لنا في الفصل التالي وقفة على ذلك النبع الذي لن ينضب مـــن فيض المنحة الروحية لهذه الحياة .

المبحث الثالث

توافق القيم في الأديان

- القيم الإيمانية (الروحية) .
- قيم العمل .
- قيم العلم والحكمة .
- قيم الحكم والإدارة .

توافق القيم في الأديان

توافق القيم في الأديان

من مجمل الأحكام الواردة في الشرائع الدينية نفهم مقاصد الأديان وغايتها التي تتوافق في خط متجانس لتقيم العلة لوجودها وانبثاقها من مصدرها السماوي أو الوضعي المستند الى حكمة التدبير الكوني ، وللنظام الروحي – الخلقي ، الذي انبثق من هذه الحكمة كناتج طبيعي لتوازن وتوافق الإدارة الإلهية مع الإرادة الإنسانية الخيرة ، وحيث يكون الإنسان الذي خلقه الله على هيئته وصورته مجسد لحالة الامتثال لارادة خالقه ، ومستخلفا له في المدار الأرضي .

والواقع أن مقررات وأحكام الشرائع الدينية وفروضها إنما تشكل في جوهرها دستورا أخلاقيا – تربويا ، ارتهنت به النفوس المؤمنة لمفاهيم ومعايير روحية صيغت بطابع كل دين يجري الالتزام به ، وهي في كلها لا تخرج عن الدائرة الروحية للمسلك الإيماني الذي ينتظم محور (التقوى) الذي يصل بالنفوس الى غايتها القصوى في السمو الروحي والخلقي ، ليشكل الدين بالنتيجة سياجا أخلاقيا تربويا تسور به النفوس بما يحصنها من غوائل الأهواء والنزعات الدنيا .

وفي هذا المبحث الذي نفصله بإيجاز على مثل هذه المساحة المحدودة ، نركز على الأعم الاشمل من النصوص وشواهد الدلالة على توافق القيم الإيمانية ما بين جملة الأديان ، مستدلين بقسط اوفر من النصوص في موردين آخرين من موارد التوافق في الأحكام ، هما مورد التربية والتعليم ،

ومورد الحكم والإدارة لتدرك من خلالهـا مدى التوافق فـي القيم الأساسية للأديان:

أولا – القيم الإيمانية (الروحية) :

في السرد التاريخي لقصة الحضارة يقف بنا "ول.ديوارنت" عند حقيقة كون الأديان السماوية الثلاث – اليهودية والمسيحية والإسلام – قد أقرت بأن ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان بأن الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شؤونه – أي الإيمان بأن عقلا حيا يعجز الناس عن إدراك كنهه يسير المسرحية الكونية إلى غاية عادلة نبيلة – .

وأن الأديان السماوية قد أعانت على تكوين عقلية الإنسان في العصور الوسطى مجمعة كلها على ان هذه العقلية الكونية هي الله ذي الجلال، غير أن المسيحية قد أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقاليم مختلفة.

أما اليهودية والإسلام فتريان ان هذا الاعتقاد ليس إلا شركا مقنعا، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة، وأن الجذر الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن كما هو الحال في كتاب العهد القديم هو خوف العقاب ورجاء الثواب في الأخرى – وهو كذلك كما نرى في العهد الجديد – منوها إلى أن القرآن قد عرف الدين وحدده تحديدا لا يجد المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة برا من قبوله (٦١) .

مستدلا بذلك ما ورد في الآية "١٧٧ من سورة البقرة" من أحكام جامعة، ونقول : أن كل أهل الأديان ليجدون في مضمون هذه الآية ، والآيات الأخرى التي سنوردها بعدها – ما يجدونه في نصوص شرائعهم ، وحيث يستكمل البلاغ القرآني في جملة نصوصه الدالة المعبرة عن توافق الأحكام بين

الأديان– لوحته في تكامل الإبلاغ الرسالي ليعلن اختتامه للمشروع الديني الضخم الذي تظافرت في تصميمه وأشادته جهود الرسل والأنبياء ، وحكماء المعرفة الدينية على توالي الأزمان ، قال تعالى : {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون} (البقرة: ١٧٧).

وقال تعالى : {قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون* ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون* وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون}. (الأنعام ١٥١ – ١٥٣) .

وقال تعالى : {ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم}. (فصلت :٣٤)

وقال تعالى : {إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضا حسنا يضاعف لهم ولهم أجر كريم}. (الحديد : ١٨)

وقال تعالى : {فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين} . (الشورى : ٣٦ - ٤٠)

وقال تعالى: {والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما }. (الفرقان: ٧٢)

وقال تعالى : {يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا...} . (الحجرات: ١٢)

وقال تعالى : {والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم يحافظون} . (المعارج ٣٢ : ٣٤)

وقال تعالى : {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما * والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاما } . (الفرقان : ٦٧- ٦٨)

وقال تعالى : {يابني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور * ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحا إن الله لا يحب

كل مختال فخور * واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير}. (لقمان : ١٧ - ١٩)

وقال تعالى : {الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم } . (البقرة : ٢٧٥ - ٢٧٦).

وقال تعالى : {إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}. (البقرة: ٢٧٧) .

وقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم} . (النساء : ٢٩).

وقال تعالى : {ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما} . (النساء ١١٠).

وقال تعالى : {يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا * وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا * ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا} . (النساء : ١٩ : ٢٢)

وقال تعالى : {ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين} . (الأنفال : ٤٦)

وقال تعالى : {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم ان تحكموا بالعدل} .. (النساء : ٥٨)

وقال تعالى:{ياأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون} . (المائدة : ٩٠-٩١)

وقال تعالى : {وتزودوا فإن خير الزاد التقوى} . (البقرة : ١٩٧)

... وهذه وتلك من الأحكام والوصايا تجد شخوصها في التوراة والتلمود والمزامير، والإنجيل وفي العقائد الهندوسية ووصايا بوذا وترنيمات زرادشت وحكم كونفيوش صوتا سماويا واحدا وضميرا إنسانيا واحدا ينطبق باسم الله دعوات للهدى والصلاح .

ثانيا : قيم العمل (٦٢):

وفيها نقرأ قسطا من المبادئ والتوجهات العامة لأداء الأعمال بما يتماشى ومفاهيم الأديان التي تتجانس وتتجارى فيها قيم النشاط العملي لتشكل جزءا هاما من منظومة السلوك الخلاق فيها، وقد اخترنا من بين الوافر من النصوص أحصنها بالدلالة على وفق مصفوفات مختصرة، ودونما تعليق أو شرح وحيث يفهم القارئ الكريم منها وجهة التوافق .

(بالأعمال يتبرر الإنسان لا بالأيمان وحده) . (يعقوب ٢ :٤)

(قدر العمل عظيم لأنه يشرف العاملين) . (التلمود)

(ليس للإنسان خير من أن يأكل ويشرب ويرى نفسه في تعبه).(جامعة ٢ : ٤)

(المتأخر في عمله هو أخو السارق) . (أمثال ١٨: ٩)

(ما المنفعة يا اخوتي إذا قال أن لي إيمانا ولكن ليس لي أعمال هل يقدر الإيمان أن يخلصه) .(يعقوب)

(إذا دعت الحاجة إسلخ جيفة في الطريق واكسب قوتك و لا تقل إنني امرؤ عظيم وان العمل دون قدري). (التلمود)

(لا تؤخر مليء بيدك وقطر معصرتك) . (خروج ٢١ : ٣)

(لا تبقى أجر لأجير عندك إلى الغد) . (الاديين : ٩)

(لا تجعل يدك مبسوطة للقبض، ولا ممسكة عند الدفع). (سفر الحكمة)

(الأجر على قدر المشقة) . (آباء)

(منفعة الأرض للكل، الملك مخدوم) . (جامعة: ٩)

(من يعرف أن يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطيئة له) . (يعقوب ٤ : ١٧)

(لا تركبوا جورا في القضاء، ولا في الوزن ولا في الكيل ميزان حق ووزنات حق) . (لاديين)

(المكثر ماله بالربا والمراتجة فلمن يرحم الفقير يجمعه). (أمثال ٢٨ : ٨)

(النظريات بدون ممارسة تؤدي إلى العبث) . (آباء)

(ليس لزاما أن يكون الناجح في الأعمال حكيما) . (آباء)

(النهار قصير، والعمل كثير ، والعمال كسالى، والثواب رفيع ، والسيد على عجل). (آباء)

(دامت المجاعة سبع سنين ولكنها لم تأت صاحب الصنعة) . (التلمود)

(أسالوا تعطوا، اطلبوا تجدوا، دقوا الباب يفتح لكم، فمن يسأل ينل، ومن يطلب يجد، ومن يدق الباب يفتح له) .(متى ٧ : ٧ – ٩)

(كل من يجيء إلي ويسمع كلامي ويعمل به أشبه لكم، برجل بنى بيتا، وعمق وجعل الأساس على الصخر فلما فاض النهر وصدم ذلك البيت فما قدر أن يزعزعه لجودة بنائه، وأما الذي يسمع كلامي، ولا يعمل به فيشبه رجلا بنى بيته على التراب بغير أساس، فصدمه النهر، فسقط في الحال، وكان خرابا عظيما) . (متى ٧: ٢٤ – ٢٧ ، لوقا ٦: ٤٧ – ٤٩)

(العامل يستحق أجرته) . (لوقا ١٦ : ١)

(ومن أساء الأمانة في القليل ، أساء الأمانة في الكثير وإذا كنتم غير أمناء في الماء الباطل، ممن يأتمنكم في الغنى الحق، وإن كنتم غير أمناء في ما هو لغيركم، فمن يعطيكم ما هو لكم) . (لوقا ١٦ : ١٠ –١٢)

(وتذكروا أن من ربح قليلا حصد قليلا ومن زرع كثيرا حصد كثيرا، فعلى كل واحد أن يعطي كل نوى في قلبه .. والله قادر على أن يزيدكم نعمه فيكون لكم في كل حين من كل شيء ما يكفي حاجاتكم، وتزدادون في كل عمل صالح). (كورنثورس ٦:٩-٩)

(فليحاسب كل واحد نفسه على عمله، فيكون افتخاره بما عمله هو لا بما عمله غيره، لأن على كل واحد أن يحمل حمله).

(وما يزرعه الإنسان فاياه يحصد). (غلاطية ٣:٦-٦).

***

{وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وان سعيه سوف يرى} (النجم : ٤٠)

{وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون} . (التوبة: ١٠٥)

{فمن يعمل في الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له لكاتبون} . (الأنبياء ٩٤)

"اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه". (حديث شريف)

" رحم الله من عمل عملا فأتقنه" . (حديث شريف)

"قال الله ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ! رجلا أعطى في فغدر، ورجلا باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره" . (حديث شريف)

"إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى" . (حديث شريف)

{وأحل الله البيع وحرم الربا . .} . (البقرة: ٢٧٩)

{وأوفوا بالكيل والميزان بالقسط . .} . (الأنعام: ١٥٢)

{يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى وليكتب بينكم كاتب بالعدل . . واشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد . . ، وان كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة} . (البقرة: ٢٨٢-٢٨٣)

{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما} . (الفرقان: ٦٧)

"لا تؤخر عمل اليوم إلى الغد " . (حديث نبوي)

"ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان به صدقة " . (حديث شريف)

***

(اعملوا كعمال يعمرون الأرض ويرفعون بأجوائها النبات). (كنزا ربا)

(يوهب كل إنسان بقدر ما عملت يداه). (كنزا ربا)

(كل من تعب ونصب ويصيب بكلتا يديه، ومن لا يتعب وينصب يبقى محروما من العطايا). (كنزا ربا)

(لا تأكلوا الربا ولا تستدينوا بالربا سرا). (كنزا ربا)

***

"من ير الراحة في العمل والعمل في الراحة فهو السديد رأيا لأنه امتلك الحقيقة". (عقائد هندوسية)

"لم يبلغ القديسون الأولون مقامهم القدسي إلا بالأعمال" (ع.هـ)

" ليؤد كل دوره في كل واجب عليه بروح غير متثاقل" (ع.هـ)

"إذا عرفت عملك وواجبك وأهملتهما فذلك هو الأثم ". (ع.هـ)

"ورعك يصوغ أعمالك". (ع.هـ)

"في التفكير السليم العمل السليم" (ع.هـ)

"العمل الصحيح أن لا يختار عملا يعتبر رديئا" (ع.هـ)

"انجاز العمل خير، والعمل الطاهر خير، ولكن أفضلهما التقوى في العمل" (ع.هـ)

"على المرء إذا اتضح له واجبه أن يكون أمينا على أدائه" (الدامايادا:١٦٦)

"الفعلة التي لا يندم عليها المرء ويسعد بنتائجها هي التي أحسن إنجازها" (الدامايادا:٦٧-٦٨)

"من تحرر من الغضب وأدى واجبه ورعى الفضيلة وتجرد من الشهوات، فهو من البراهمة" . (الدامايادا:٣٨٩)

"الجهد غير الموجه يؤول إلى الخسارة لا إلى الربح" (الجتاكاس:٤٨)

"الواجبات المؤجلة في سرور تنجز بالدموع" (الجتاكاس:٧١)

"لا تفرط بل تعلم تجنب الإفراط، إن زيادة النفخ تضيع مكاسب النفخ" (الجتاكاس:٥٦)

"من يستعجل حين يجب أن يتأنى، ويتأنى حين يقتضي أن يستعجل يقطع خيوط مسراته الرفيعة" (الجتاكاس:٣٤٥)

"مائة ألف أنشودة سيئة لا تساوي واحدة حسنة الأداء " (الجتاكاس:٤٨١)

"ومن يحتفظ بنقوده للعد لا للتجارة أو الإحسان .. فانه في الواقع ليس من الأحياء وإن كانت أنفاسه كمنفاخ الحداد" . (الهيتوباديسا)

"من يفكر بأن الدقيقة قليلة، كالأحمق يسيء استعمال ساعته" (الهيتوباديسا)

"العمل الصحيح : أن لا يختار عملا رديئا" .   (من الطرق الثمانية: نودا)

***

"على الصانع الذي يبغي تجويد عمله أن يعد عدته أولا"   (كونغوشيوس)

"عندما لا أحتاج مهارتي أكتسبها"   (كونغوشيوس)

"الفضيلة أن تكافئ المجهود بأكثر من المكافأة"   (كونغوشيوس)

"مقدسي هو رجل التقوى، من خلال الأفكار والكلمات والأفعال"   (زرادشت)

"بالفكر والكلمة والفعل .. بينهما يختار الرجل جيدا، ولا يفعل هكـــذا الأحمـق"

(زرادشت)

"هو الذي يعطي أجرا لمن يستحقه"   (زرادشت)

"المصلحون المقبلون للناس، هم الذين من خلال العقل الخير سيناضلون باعمالهم"

(زرادشت)

ثالثـــا : قيم العلـــم والحكمة :

***

{ وقل رب زدني علما . . .}   (طه: ١١٤)

{ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا}   (الإسراء: ٨٥)

{وفوق كل ذي علم عليم}   (يوسف: ٧٦)

{يؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا}   (البقرة: ٢٦٩)

{ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما}   (القصص: ١٤)

"مداد العلماء أفضل من دم الشهداء"   (حديث شريف)

"من سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله طريقه إلى الجنة"   (حديث شريف)

"اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" (حديث شريف)

"قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له" (حديث شريف)

"لا حكيم إلا ذو تجربة ولا حليم إلا ذو عثرة" . (حديث شريف)

***

"بالحكمة يبنى البيت،وبالفهم يثبت، وبالمعرفة تمتلئ المخادع من كل ثروة كريمة ونفيسة". (أمثال ٢٤: ٣-٤)

"اعط حكيما فيكون أكثر حكمة، وعلم صديقا فيزداد علما". (أمثال ٩:٩)

"طريق الجاهل مستقيم في عينه، أما صانع المشورة فهو حكيم". (أمثال ١٢ :١٥)

"قنية الحكمة كم هي خير من الذهب وقنية الفهم تختار من الفضة". (أمثال ١٥:١٣)

"الدرس يؤدي إلى العمل" . (التلمود)

"الحكمة المخبأة والكنز المكنوز ماذا ينتفع بهما ؟" . (سفر الحكمة)

"حكمة الإنسان المتعلم تأتي في فرصة الراحة" . (سفر الحكمة)

"المساير للحكماء يكون حكيما، ورفيق الجهال يضر" . (أمثال١٣:٢)

"لا تلميذ أعظم من معلمه، ولا خادم أعظم من سيده، يكفي التلميذ أن يكون مثل معلمه والخادم مثل سيده". (متى ١٠: ٢٤-٢٥)

"الحكمة تبررها الأعمال" . (متى : ١١-١٩)

"ما أعمق غنى الله وحكمته وعلمه، وما أصعب إدراك أحكامه وفهم طرقه". (رومة ١١:٣٣-٣٤)

"أما أنت فتكلم بما يوافق التعليم الصحيح" . (تيطس ٢:١)

"من كان منكم حكيما، عليما، فليبرهن عن حكمته ووداعته بحسن أدبه" . (يعقوب ٣:١٣)

****

"أربعة صنوف من البشر يحيطون بي علما : اليوكي، والمتلهف للمعرفة، والمجد في المعونة، والمقيم على الثقة بي بصيرا". (عقائد هندوسية)

"نار المعرفة تلتهم الخبائث" . (عقائد هندوسية)

"أسوأ الوصمات وصمة اسمها الجهل" . (عقائد هندوسية)

"فضائل البراهمي المنبعثة في طبيعته هي: الهدوء، النضج النفسي، التدين، الطهر والصبر، والاستقامة، والتعلم، ومعرفة حقيقة الأمور". (عقائد هندوسية)

"التفكر طريق الخلود" . (الدامايادا :٢١)

"من يتعلم قليلا يشب كالثور، ينمو جسما ولا يزداد علما" . (الدامايادا)

"إذا كانت عقيدة الإنسان غير مستقرة وعقله مضطربا فإن معرفته لن تكون كاملة". (الدامايادا :٣٨)

"إدراك ماهية الخير والشر هي المعرفة الحقيقية" . (الهيتوباديسا)

"تضليل الجهلاء يسير" . (الجانسيتة)

"العلم يتوج المثابرة بالنجاح" . (الجتاكاس:٤٧)

"ثبت نفسك في اللياقة أولا ثم علم" . (الجتاكاس٤٠)

"إذا كنا عقلاء فإننا نزرع العقلاء والحكماء". (الجتاكاس ٥٢٥)

***

" بالفكر، والكلمة، والفعل.. بينهما يختار الرجل الحكيم جيدا، ولا يعقل هكذا الأحمق" . (زرادشت)

"عسى من خلال الحق أن يتمم خالق الوجود بواسطة العقل الخير.. الإصلاح والتجديد" . (زرادشت)

"الفكر الصامت علمني الخير الكثير" . (زرادشت)

***

"الحكمة هي معرفة الإنسان" . (كونفوشيوس)

"على المعلم أن يتذكر دائما أربعة أشياء : علمه، سلوكه، نزاهته، وولاءه".
(كونفوشيوس)
"ألا يؤدي الشعور بالرضى أن يتعلم الإنسان وأن يمارس ما تعلمه؟".
(كونفوشيوس)

رابعا : قيم الحكم والإدارة :

تستكمل الأديان وظيفتها الأخلاقية بالوظيفة القانونية من خلال جملة من التوجيهات والإرشادات الحكيمة التي تنظمها نصوصها في مدار الحكم والإدارة، وتكتسب هذه النصوص أهميتها كونها قد جاءت من سدة الحكم الإلهي، أو من منصة الخبرة والممارسة في شوط الحياة معتبرة ومستلهمة روح البلاغ السماوي.

وحيث أن بعض الأديان قد مارست دورها في الحكم على نحو مباشر أو غير مباشر ناقلة اطروحتها النظرية إلى خير الواقع بقدر ما، ونعرض في الآتي مقتطفات من نصوص الشرائع الدينية وهي تتناول مسائل محددة من هذا الجانب ولقدر من التوافق الموضوعي :

{إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل} .
(النساء: ٥٨)

{وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين} . (المائدة : ٤٢)

{وأمرهم شورى بينهم} . (الشورى:٣٨)

{أطيعوا الله والرسول وأولي الأمر منكم} . (النساء :٥٩)

{ثم استوى على العرش يدبر الأمر} . (يونس :٣)

{يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين} . (الحجرات :٦)

{إن خير من استأجرت القوي الأمين} . (القصص:٢٦)

{وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولا} . (الإسراء :٣٤)

" ألا كلكم راع .. ومسؤول عن رعيته..". (حديث شريف)

"ما من عبد يسترعيه الله رعيته يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم الله عليه الجنة". (حديث شريف)

"من استعملنا منكم على عمل فكتمنا مخيطا فما فوق كان غلولا يأتي به يوم القيامة". (حديث شريف)

"اسمعوا وأطيعوا فإنما عليهم ما حملوا وعليكم ما حملتم". (حديث شريف)

".. يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها". (حديث شريف)

"إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ ما أمر به فيعطيه كاملا، موفرا طيبة في نفسه، فيدفعه إلى الذي أمر به له". (حديث شريف)

***

"هو ذا السفن وهي عظيمة بهذا المقدار تسوقها رياح عاصفة تديرها دفة صغيرة جدا إلى حيثما شاء قصد المدير" (يعقوب ٣:٤)

"كل من يزاول العدل والإحسان فكان ملأ الدنيا بالحنو" (آباء)

"حكم واحد يكون لكم، الغريب يكون كالوطني" (لاديين ٢٤:٢٢)

"حيث لا تدبير يسقط الشعب، إما الخلاص فبكثرة المشيرين"

"إذا ساد الصديقون فرح الشعب، وإذا تسلط الشرين يئن الشعب" (أمثال ٢٩:٢)

"تحفظ الدنيا بثلاث : الصدق والعدل والسلام" (آباء)

"لا تحكم وحدك إذ لن يحكم وحده إلا الواحد" (آباء)

"الشريعة فوق الكهنوت واعظم من الإمارة" (آباء)

***

تعلمون أن رؤساء الدول يسودونها، وأن عظماءها يتسلطون عليها، فلا يكن هذا منكم، بل من أراد أن يكون عظيما فيكم، فليكن لكم خادما، ومن أراد أن يكون الأول فيكم، فليكن عبدا، هكذا ابن الإنسان جاء لا ليخدمه الناس، بل ليخدمهم ويفدي بحياته كثيرا منهم " (متى ٢٠: ٢٦-٢٨)

"لا تحكموا على الظاهر، بل احكموا بالعدل" (يوحنا ٧:٢٤)

"أنا الراعي الصالح، والراعي الصالح يضحي بنفسه في سبيل الخراف" (يوحنا ٩:١١)

"أهم ما في الشريعة العدل والرحمة والصدق، وهكذا ما كان يجب أن تعملوا به من دون أن تهملوا ذلك، أيها القادة العميان" (متى ٢٣:٢٣-٢٤)

"من كان أمينا على القليل، كان أمينا على الكثير، ومن أساء الأمانة في القليل، أساء الأمانة في الكثير" (لوقا ١٦: ١٣-١٤)

***

"اعتداد الكشاتري المنبعث من طبيعته : يفقد بالشجاعة والحدة، والجلد، والمهارة، والكفاح والسخاء، وسماء بنبل سيد القوم" (عقائد هندوسية)

"في نفس كل امرئ مرشد يرسم أعماله، ويشد فيها أوتارا يختارها فيرقص على أنغامها" (ع.هـ)

"من يؤدي واجبه المناط به -مهما كان نوعه- مثابرا وقانعا يمسك بناصية الكمال" (ع.هـ)

" العمل الصالح غير مشروط، مجردا عن الهوى" (ع.هـ)

" الحظ والإدارة يسيران متلازمين" (الهيتوباديسا)

" احفظ بذرة المشورة ضمن قشرة الصمت" (الهيتوباديسا)
" حين ينعدم العقلاء يسود قليلو الذكاء" (الهيتوباديسا)
***

"المصلحون المقبلون للناس، هم، الذين، من خلال العقل الخير، سيناضلون بأعمالهم لينقذوا الحكم الذي أمرت به، أيها الرب الحكيم. كحق .. لأنهم الاعداء المعينون ضد روح الشر" (زرادشت :ترانيم)
" عسى أن يحكمنا الأتقياء.لا الأشرار" (زرادشت ٥:٤٨)
"بالنسبة للشرير والرجل المستقيم .. وهذا الذي يجمع بين الخطأ والصواب.. ستكون المحاكمة بالنظام القائم .. تبعا لقوانين الوجود" (زرادشت ١:٣٣)
"ان القرار سيكون في مملكتك، أيها الرب الحكيم.. وهي أيضا مملكة الحق .." (زرادشت ٣٢: ١-٦)
***

"سئل كونفوشيوس : ما هي في رأيك مقومات الحكومة الصالحة ؟

فأجاب : على الحاكم أن يقدر المزايا الخمس : العطاء بغير إسراف، والضرائب بغير إثارة تذمر، والرغبة بغير جشع، والعظمة بغير عجرفة، والجلال بغير قسوة، لذلك عليه أن يتجنب الشرور الأربع: فرض العقوبة بدون نص قانوني فإنه الطغيان، وتوقع الطاعة التامة بغير تحذير مناسب فإنه الجور، وتوقع الانصياع الفوري للأوامر-فإنه السرقة، وفرض الضرائب والأنفاق بتقتير فإنه إساءة استعمال الحكم".
"ليبد الزعيم الاستقامة في خلقه كي تنتظم الأمور حتى بغير توجيهات". (كونفوشيوس)

الرفيع يفكر في أخلاقه والوضيع يفكر في مركزه، الأول منهما يفكر بالعقوبات على الخطأ، والآخر بالمثوبة". (كونفوشيوس)

"ليرفع زعيم القوم، ذوي القابليات، وليرشد من تنقصه، وبذلك ينصاع إليه برغبة". (كونفوشيوس)

ومن جماع تلك القيم التي انتظمتها تلك النصوص والكثير منها الوارد في ثنايا كتب الشرائع الدينية، يتشكل الدستور الأخلاقي للسلوك والذي تستمد منه القوانين الوضعية -وبقدر متفاوت- غايتها في السمو والتجرد، وقد قامت على هدى تلك المواثيق الخلقية بعض من سلطات الحكم استمدت منها إرشادها الحكيم في حكم عادل ومنصف، في هذا المكان أو ذاك، ومن هذه العقيدة أو المذهب أو ذلك .. وفي كلها فالدين في جوهره عقيدة للسلوك الأخلاقي، يستفيد من قيمها ومثلها الحاكم والمحكوم في إرشاد نظم الحكم والإدارة على حد سواء.

المبحث الرابع

الإبلاغ الرسالي

رحلة مشتركة من العناء والمكابدة

الإبلاغ الرسالي

رحلة مشتركة من العناء والمكابدة

الإبلاغ الرسالي
رحلة مشتركة من العناء والمكابدة

تولد حالة الارتطام بالواقع الاجتماعي أشكالاً من العناء والمكابدة تتناسب في شدتها ومدتها مع الظروف والاعتبارات السائدة في كل مجتمع، والأنبياء والرسل، وحكماء المعرفة من بين أخص الناس الذين تلقوا وافراً من المكابدة والعناء كونهم قد ارتطموا مع واقعهم بما لا يتناسب ويتوافق مع الأهواء والنزعات الغالبة، متحملين أعباء التنفيذ لأوامر ملزمة من السماء، أو من وحي ضمائرهم في أن يبلغوا رسالاتهم بلا تردد أو تواكل، وبلا خشية من ردود أفعال من يناهض دعواتهم.

والأنبياء كلهم، وكذا أصحاب الدعوات الدينية، قد أوذوا واستهزأ بهم قومهم، وواجهوا مع من آمن معهم العنت الشديد، وقد نوه السيد المسيح لذلك في موعظته لتلاميذه على الجبل :

"هنيئاً للمضطهدين من أجل الحق، لأن لهم ملكوت السموات، افرحوا وابتهجوا، لأن أجركم في السماوات عظيم، هكذا اضطهدوا الأنبياء قبلكم .." (متى ٥: ١٠-١٢، لوقا ٦: ٢٠-٢٣)

"ها إني أرسلكم مثل الخراف بين الذئاب فكونوا حذرين كالحيات، ودعاء كالحمائم، وانتبهوا..لأن الناس سيسلمونكم إلى المحاكم، ويجلدونكم في المجامع،ويسوقوكم إلى الحكام والملوك من أجلي.. سيسلم الأخ أخاه إلى الموت والابن ابنه، ويتمرد الأبناء على الآباء ويقتلونهم، ويبغضكم جميع الناس من

أجل اسمي، والذي يثبت من النهايـة يخلص، وإذا اضطـهدوكم فـي مدينـة، فاهربوا إلى غيرها.." (متى١٠: ١٦-٢٣، مرقس ١٣: ٩-١٣، لوقا : ١٢-١٧)

ويورد الكتاب المقدس شكوى (إيليا) نبي إسرائيل إلى الله تعالى :

"يا رب قتلوا أنبياءك وهدموا كل مذابحك، وبقيت أنا وحدي وهـم يريـدون أن يقتلوني .." (رومة ١٠:٣)

ويفيد القرآن الكريم أن المعانـاة كانـت حصة الرسل والأنبيـاء جميعـاً فـي قومهـم:

{كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذّب الرسل فحق عقاب} (ص: ١٢-١٤)

{ثم أرسلنا رسلنا تترا كل ما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون} . (المؤمنون ٤٤)

{وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين} (الفرقان ٣١)

بل أن مجرمي البلدان وشياطين الأنس والجن قد تضافروا لعداء الأنبياء:

{ وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً} (الأنعام ١١٢).

ومن بعض ما ذكر عن النبي محمد (ص) من شاهد الإيذاء للأنبياء ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قوله :

"كأني أنظر إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يحكي نبيا من الأنبياء ضرب قومه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول :

"رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون" (٦٣)

وإننا لنتجاوز عناءات ومكابدات الرسل الأولين منذ عهد نوح وحتى سيد الأنبياء المجددين إبراهيم، لنعبر ذلك المشوار الطويل من مشقات الإبلاغ الرسالي-والتي لا يتسع بحثنا لإيرادها فيما اتسعت نصوص الكتب المقدسة لإيرادها تفصيلاً أو إيجازاً- لنقف عند المحطة الجديدة من شوط الإبلاغ الرسالي والتي بلغت فيها مسيرة الإيمان ذروة تألقها ممثلة بهذه النتائج الباهرة التي حققتها الأديان السماوية الماثلة الآن، وبإيزائها بعض من الأديان غير السماوية التي تطاولت على الزمن ليمتد بها العمر إلى الحاضر، فيما يشكل استحضاراً معاناة رسلها ورواد مسيرتها الأولين تمثلاً لصور ذلك العنت من أقوام شتى لديانات قد اندثر الكثير منها .

وتجسد مسيرة الرسالات السماوية أوجه ذلك العناء الذي احتمله أولو العزم من رسلها الصامدون، المثابرون، الذين نحتوا على لوحة الوجود عمائرها بالجلد والصبر.

فقد كان على النبي موسى عليه السلام أن يبلغ الجبار فرعون رسالة كان أقلها عليه التنكيل والاضطهاد ثم القتل، مما لم يجرؤ عليه أحد سواه، ولم تشفع لموسى معاذيره في التردد خشية أن ينتقم منه الحاكم المتجبر، أو من يتربص للاقتصاص منه بعد أن انتصر لواحد من شيعته "فقتل الذي هو من عدوه، أو لا يفلح أمره مع سحرة فرعون، أو لا ينطق لسانه، لتسد أمامه كل الأعذار كي يمضي قدماً في إبلاغ ما كلف به من أمر رباني ملزم، وليلقى الذي

كان من فرعون الذي لم تفلح معه كل معجزات موسى الربانية لتثنيه عن تحرير شعب إسرائيل من ربقة العبودية والاضطهاد ..

ولنترك المجال للكتاب المقدس وهو يروي لنا -عدا رواية القرآن الكريم- وافراً من أحداث المرحلة الموسوية- نبذاً من أوجه تلك المعاناة التي كابدها موسى مع فرعون ومع قومه هو :

تذرع موسى في البدء لربه بعثرة لسانه : "استمع أيها السيد لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ، ولا حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان" فقال له الرب : "من صنع للإنسان فماً أو من يصنع أخرس أو أصم، أو بصيراً أو أعمى ..

اذهب وأنا أكون مع فمك" فقال :"استمع أيها السيد بيد من ترسل، فحمي غضب الرب، وقال: أليس هارون اللاوي أخاك، أنا أعلم أنه هو يتكلم.. فتكلمه وتضع الكلمات في فمه، وأنا أكون مع فمك وفمه" (خروج ٣:٤).

ومع كل عجائب المعجزات التي جعلها الرب في يد موسى والتي وضعها قدام موسى حيث أمره الله بالقدرة على أن يأخذ عصاه ويمد يده لتمتد على أنهار المصريين وعلى سواقهم وعلى آجامهم، وعلى كل مجتمعات مياههم لتصير دماً، وضرب التخوم بالضفادع التي صعدت ودخلت بيت فرعون حتى مخدعه وسريره وبيوت حاشيته، وتنانيره، وضرب تراب الأرض ليصير بعوضاً في جميع أرض مصر، وإرسال الذبان إلى بيوت فرعون وبيوت عبيده، وإرسال الوباء الثقيل في الحقل ليكون على مواشي فرعون والمصريين، وإرسال موسى لرماد الآتون وذره نحو السماء أمام عيني فرعون ليصير غباراً على كل أرض مصر، فيصير على الناس والبهائم دماً بل طالعة بثبور، وإنزال الرعود والبرد والنار التي جرت على الأرض، وإرسال الجراد

على التخوم ليغطي وجه الأرض ليأكل الفضلة السالمة من البرد، ويأكل جميع الشجر النابت في الحقل، ثم الظلام الدامس في أرض مصر لثلاث أيام .. وهكذا في تسع آيات بينات، جاء على ذكرها الكتاب المقدس تفصيلاً، وأوردها القرآن الكريم إيجازاً .

وبعد كل آية كان فرعون يتضرع لموسى بأن يناشد الرب ليتجاوز عما يصيبه وقومه من المحن، فلما يكون ذلك يرجع موسى إلى مكابرته، حتى ضرب الرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون إلى البكر الجالس على عرشه، إلى الأمير في السجن، وكل بكر بهيمة، حتى قام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين، وكان صراخ عظيم في مصر، لأنه "لم يكن بيت ليس فيه ميت".

بعدها ألح المصريون عليه ليطلق سراح بني إسرائيل عاجلاً من الأرض ليرحلوا بعدئذ من رعمسيس إلى سكّوت في نحو من ستمائة ألفاً من الرجال عدا الأولاد.." (خروج ١٢-٣: ١٢)، ولم تنته معاناتهم، إذ أن هؤلاء الذين أطلق عليهم الكتاب المقدس اسم "أجناد الرب" ضلوا الطريق إلى أرض فلسطين وتاهوا في بحر سوف، فيما لحقتهم جيوش فرعون الذي شدّ مراكبه المنتخبة ليسعى وراء قوم موسى ليدركوهم وهم نازلون عند البحر عند فم "الحيروث" أمام بعل صفون، فيما فزع بنو إسرائيل وارتدوا على موسى قائلين له :

"ماذا صنعت بنا.. أأخذتنا لنموت في البرية، وأنه لخير لنا أن نخدم المصريين من أن نموت في البرية..!"، ولم يكن لموسى في خضم تلك المحنة إلى أن يحيلهم إلى الصبر منتظراً خلاص الرب الذي سيضعه ذلك اليوم، وجاءت المعجزة الإلهية لموسى: "أن ارفع عصاك ومديدك على البحر وشقه،

فيدخل بنـــو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة، وهـــا آنـــذا أشــدد قلـــوب المصريين حتى يدخلوا وراءهم فأتمجد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرســـانه فيعرف المصريون أني أنا الرب..

فانتقل ملاك الرب السائر أمام عسكر إسرائيل وسار وراءهـــم، وانتقـــل عمود السحاب من أمامهم ووقف وراءهم فدخل بين عسكر المصريين وعســـكر إسرائيل، وصار السحاب والظلام وصار الليل، ومدّ موسى يـــده علـــى البحـــر فأجرى الله البحر بريح شرقية شديدة كـــل الليل وجعل البحر يابسة .

وانشق الماء فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابســـة والمـــاء سور لهم وتبعهم المصريون وادخلوا وراءهم جميع خيـــل فرعـــون ومركباتـــه وفرسانه ولمـــا كان هزيع الصبح أزعج عمود النار والســـحاب وخلـــع بكـــر مركباتهم حتى ساقوها ثقيلة ليهربوا بعدها ..

ثم مد موسى يده على البحر ليرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حالتـــه الدائمة والمصريون هاربون إلى لقاءه، فدفع الرب المصريين في وسط البحـــر فرجع المـــاء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون فيمـــا مشـــى بنـــو إسرائيل على اليابسة في وسط البحر والماء سور لهم عـــن يمينـــهم ويســـارهم" (خروج ١٤-١٥ :١٤).

وابتدأ فصل جديد من المحنة إذ ارتحل موسى وبنو إسرائيل مـــن بحـــر سوف ليخرجوا إلى برية شور ليسيروا ثلاثة أيام في البرية ولـــم يجـــدوا مـــاء فجاؤوا إلى مارّة، ولم يقدروا أن يشربوا ماء من مارّة لأنه مر، فتذمر الشـــعب على موسى مرة اخرى، وصرخ إلى الرب فأراه الله شجرة فطرحها في المـــاء فصار الماء عذباً.. ثم جاء إلى إيليم وهناك اثنتا عشر عين ماء، وسبعون نخلـــة فنزلوا عند الماء ، ثم ارتحلوا .. وأتى كل جماعة من بني إسرائيل إلـــى بريـــة

سين (سيناء) في اليوم الخامس عشر من الشهر الثاني بعد خروجهم من أرض مصر .. (خروج ١٦:٦).

وقد ورد مصداق تلك الحوادث في القرآن الكريم مفصلة في الآيات ٤٩-٦٦ من سورة البقرة، ١٠٥-١٤٢ من سورة الأعراف، و١٠١-١٠٤ من سورة الإسراء، والتي توافقت مع ما ورد في الكتاب المقدس من الحوادث التي أغضبت موسى وآلمته، ومنها تحديدا ما كان من "اتخاذهم العجل" وثنا صنعوه من حليهم بعد أن غاب عنهم موسى وخلفه هارون يوم صدع لأمر الله ليصعد إلى الجبل ليتلقى منه الألواح التي جعل فيها "من كل شيء موعظة وتفصيلا"، وحيث كادوا أن يهموا بهارون ويقتلوه، وبالكاد استطاع موسى أن يثنيهم عن ذلك الارتداد، حيث :"أخذ الألواح وفي نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون، واختار موسى سبعين رجلا" للميقات الذي حدده الله لهم، ليريهم معجزته، وقد كادوا ليهلكوا من فرط ما ارتهبوا، فقال موسى:

{رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين} (الأعراف: ١٥٥).

وعدا ذلك في المشاهد المثبتة في النصوص المقدسة فإن قدرا لا يستهان به من الإيذاء قد لحق بموسى من قومه، ومن بعض ذلك ما وردت الإشارة إليه في نص قرآني متبوع بتعقيب للرسول محمد (ص) بشأنه، وخلاصته أن موسى عليه السلام قد وجد يوما ما يمنعه أن يغتسل مع جماعة فاتهمه البعض بأنه (آدر -أي منتفخ الخصيتين)، فآلمه ذلك حتى برأه الله فما قالوا بأن وضع ثوبه على الحجر ليغتسل ففر الحجر كما ذكر -حتى وقف بين ملأ بني إسرائيل فأدركه موسى فأخذ ثوبه واستتر به فرأوه ولا إدرة به، وقد وردت الإشارة لذلك في

القرآن الكريم في معرض نهي البعض من التعامل المؤذي للنبي محمد (ص) بمثل ما أوذي موسى عليه السلام من قبل ، قال تعالى:

{ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيها}. (الأحزاب:٦٩)

وقد روى الشيخان بصدد ذلك عن عبد الله بن مسعود قوله :"قسم رسول الله ذات يوم قسماً فقال رجل من الأنصار :إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فاحمر وجهه، ثم قال :رحمة الله على موسى فقد أوذي بأكثر من هذا فصبر"(٦٤) .

كذلك كان شأن الرسول عيسى عليه السلام -الذي لقي من مقاومة وعنت الفريسيين المتزمتين والكهنة وشيوخ المدينة- قدراً لا يستهان به مما ورد الوافر منه في ثنايا الكتاب المقدس، ليغالب القدر فيشق طريقه الصعب إلى قلوب الناس بعد أن شق الدهر أوصاله عذاباً مراً ليرتحل عن الدنيا وهو يكابد العذاب والألم، وقد تحمل قبله "يوحنا المعمدان - يحيى" عليه السلام قدراً وافراً من المكابدة حتى لقي حتفه بتلك الطريقة البشعة في سجنه على يد جندي من جنود الملك هيرودس.

وبقدر ما غمرت السعادة نفس السيد المسيح في الدورة الأولى من بدء دعوته وهو يرى اجتماع الناس إليه وتقديسهم إياه للبركات والمعاجز التي أظهرها، فإن قدراً لا يستهان به من الألم والمعاناة قد أصابته في أواخر حياته على الأرض، حيث شهد خيانة أحد تلاميذه الاثنى عشر الذي تآمر عليه مع رؤساء الكهنة وشيوخ المدينة للقبض عليه، وإنكار أحد تلامذته له بعد أن حملوا عليه حملتهم الشعواء، وقد شهد عليه البعض شهادة الزور، وتجرأ البعض عليه أثناء ذلك حتى أنه -وكما يخبرنا الكتاب المقدس- "بصقوا في وجه يسوع

ولطموه، منهم من لكمه، واستهزأ به البعض فقالوا :تنبـــأ أيــها المســيح مــن ضربك.. ثم أخذ إلى مقر الحاكم وانتزعت عنه ثيابـــه وألبــس ثوبــاً قرمزيــاً وصنفروا له إكليلاً مــن شوك وضعوه على رأســـه، وركــع الجنــود أمامــه مستهزئين به، يبصقــون عليه، ثم انزعوه الثوب ليلبس ثيابه، ويساق ليصلــب"، كل ذلك جرى لشخص السيد المسيح في أواخر حياته الشـــريفة علــى الأرض، ليلقى قدره المؤجل من المعاناة والمكابدة ..

وقــد تحمل السيد المسيح ذلك القسط من النكال والتنكيل معلناً لتلاميــذه أن ذلك هو قدره المحتم، مذعناً بإيمان لهذا القدر المحبب، قائداً لواحد من تلاميذه الذي مديده إلى سيفه يستله ليضرب به خادم رئيس الكهنة فيقطع أذنه :

" ..ردّ سيفك إلى مكانه فمن يأخذ بالسيف، بالسيف يهلك، أتظن أني لا أقــدر أن أطلب إلى أبي، فيرسل لي في الحال أكثر من اثنتي عشر جيشاً من الملائكة ..!" معلناً أن ذلك كله قد حدث :"لتتم كتب الأنبياء".

والسيد المسيح في معاناته الكبرى تلك قد جسّد قول كونفوشيوس فيــه : "هناك من قضوا على حياتهم سعياً وراء الكمال، والواقع أن السيد المســيح قــد سعى للكمال الروحي ليس لذاته، بل لذات الله لتظل شريعته قائمة، فكان بـــالحق من جملة من وصفهم الله تعالى في القرآن الكريم :

{من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً} .(الأحزاب: ٢٣)

وقد تحمل رسل السيد المسيح من بعده قسطاً لا يستهان بـــه مــن ذلــك النكال والتنكيل، فهذا بولس الرسول يصف ما يتحمل :

".. وتعرضت للموت مراراً، جلدني اليهود خمس مرات تسعاً وثلاثين جلدة، وضربني الرومانيون بالعصي ثلاث مرات، ورجمني الناس مرة واحدة، وانكسرت بي السفينة ثلاث مرات، وقضيت نهاراً وليلة في عرض البحر، وفي أسفاري المتعددة تعرضت لخطر الأنهار واللصوص" ولخطر اليهود وغير اليهود، وواجهتني أخطار في البراري، وأخطار في البحر، وأخطار من الأخوة الكذابين، وعانيت الكد والتعب والسهر الدائم، والجوع والعطش والصوم الكبير، والبرد والعري .. وهذا كله إلى جانب ما أعانيه كل يوم من اهتمام بجميع الكنائس" (كورنثوس ٢: ٢٥-٢٧).

وقد واجه الرسول محمد (ص) قدره في مهمات الإبلاغ الرسالي بالاعتماد على ممكنات الذات باحثاً عن الإسناد الأرضي في أرض تهتز تحت قدميه عناداً ومكابرة من أهلها، أكثر من بحثه عن إسناد السماء حتى استطاع أن يجد بعد المكابدة الطويلة ذلك الإسناد البشري من نخبة الرجال المؤمنين الذين صدقوا وعد الله فيهم ليتحملوا مع الرسول الكريم جانباً من عبأ الرسالة بمثل ما تحمل تلاميذ السيد المسيح أعباء التنفيذ لرسالة معلمهم الأكبر الذي آزره الإسناد السماوي كما آزر الرسول الكريم موسى في جملة من المعجزات لتأدية مهامهم الرسالية.

ولم تشفع لمحمد مقدرته عند أول بلاغ إلهي بالجهر بدعوته "ما أنا بقارئ" بل كان لزاماً عليه أن يعي مضامين الوحي ليمضي في مهمة الإبلاغ الرسالي التي تدرجت من الدائرة الصغرى "عشيرته الأقربين، لتصل إلى مداها الأرحب في أرجاء الأرض، ولتتدرج رحلة العناء في كل مرحلة من مراحل ذلك الإبلاغ، إذ لقي الرسول محمد (ص) وهو يجاهر بالدعوة ألواناً من التنكيل والشدة حتى من أخص أقربائه وقومه، فقد كان أبو جهل -عمه-، وعقبة بن أبي معيط يلقيان بالعذرة والنتن على بابه، واتبع أبو جهل أساليب خاصة لفتنة

من يدعوهم الرسول إلى الإسلام تتفق مع ميولهم ووصفهم الاجتماعي، فيأتي الرجل الشريف فيقول له :"أتترك دينك ودين أبيك، وهو خير منك"، ويقبح رأيه ويسفه حلمه، ويضع شرفه .. وإن كان تاجرا يقول له : "ستكدس تجارتك، ويهلك مالك"، وإن كان ضعيفا أغرى به حتى يعذب، وكان "الأسود بن عبد يغوث -ابن خال محمد (ص)- يستهزئ بالمسلمين وإذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه :"هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون كسرى !" وما أشبهها ...

أما الحكم بن العاص فكان يتصدى للنبي ويشتمه ويمشي وراءه يحاكيه في مشيته ويخلج بأنفه وفمه، وكان يتطلع عليه في داره، وكان النبي (ص) قد رآه على هذا الحال فقال :"من غديري من هذه الوزغة (دويبة)"، وكانت مقابلته له حين مكنه الله من الأمر أن لا يساكنه المدينة ما أقام وكان هذا حاله مع قاتل عمه العباس.(٦٥).

وكانت تختلف أقوال قريش في محمد، وللناس الذين كانوا يأتون مكة يسألون الناس عنه، فيقولون عنه "شاعر، أو كاهن، أو مجنون"، وفي الطائف حين قصدها الرسول (ص) داعيا إلى الله واجه أذى كثيرا من ثقيف، حيث شدوه إلى حائط لعتبة وشيبة -ابنا ربيعة-، وأغروا به سفهاءهم ليؤذوه شر إيذاء، وقد استجار بالمطعم بن عدي بعد رجوعه من الطائف، فتسلح المطعم وأهله وخرجوا حتى المسجد الحرام ليدخل الرسول مكة في أمانة بعد ذلك ..

ومن بعض الذي لقيه الرسول محمد (ص) من المكابدة وهو يواصل مهمته في الإبلاغ الرسالي أن القوم اجتمعوا عليه مرة ليقتلوه حيث أخذه عقبة ابن أبي معيط بردائه وقام أبو بكر رضي الله عنه دونه يبكي ويقول : "ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟!" فانصرفوا عنه.. وفي كل ذلك كان الرسول محمد (ص) يتلقى تبعات إبلاغه بالصبر الجميل تشد عزيمته نداءات ربه.

"واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً" (المزمل: ١٠)

وتدفعه إلى غايته ثقة بالنصر والوعد الحق .

{فاصبر إن وعد الله حق فلا يستخفنك الذين لا يوقنون} .(الروم: ٦٠)

{فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل} (هود: ١٢)

ويطمئن الوحي الرسول بأن تكون له الأسوة الحسنة بصبر سابقيه أولي العـــزم من الرسل .

{فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم} (الأحقاف: ٣٥)

{ولقد كُذّبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذّبوا وأوذوا حتى آتاهم نصرنا، ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين} (الأنعام: ٣٤).

وبقدر ما أصاب الرسول محمد (ص) من الأذى فإن المؤمنين الأوليـــن كانت لهم حصة وافرة من الأذى والملاحقة، وقد حفلت المرحلـــة الأولـــى مـــن الدعوة الإسلامية بألوان من الاضطهاد والعنف الذي مارسته قوى الشرك المتنفذة في مكة، وهي ترى في دعوة الإسلام خروجاً على قانون حياتها وانتهاكاً لحرمة ما ألفوه من معتقداتهم الوثنية، مقابل صور مجلاة من التضحيات التـــي قدمـــها المسلمون الأوائل وبشكل خاص المستضعفون منهـــم، والذين لم ينتموا لقبـــائل قوية وذات شأن تمنع عنهم، أو كانوا في الأصل أرقاء مستعبدين لبعض أســـياد قريش، حيث كان هؤلاء عرضة لاضطهاد وتنكيل مباشر من أوليائهم لحملـــهم على نبذ عقيدة التوحيد، فكان نصيب بلال بن رباح، وصهيب بن سنان، ولبيبـــة

جارية بني نوفل، وزنيرة .. وغيرهم من العذاب كثيراً ومؤثراً، حيث كانوا يلصقون بصدورهم وظهورهم على الرمضاء ، ويلقون بالرضف – وهي الحجارة المحماة بالنار – عليهم، ويلوون رؤوسهم، ويضربون بالسياط .. الخ.

وكانت عائلة ياسر –الرجل المسن– تعذب كلها عذاباً مراً حتى أن ياسر قد مات في العذاب، وأغلظت زوجته سميّة القول لأبي جهل فطعنها بحربة في يديه فماتت، وشددوا العذاب على ابنهما عمار بالجر تارة وبوضع الحجر على صدره، وبالتغريق تارة أخرى، وكانوا يقولون له : لا نتركك حتى تسب محمداً، وتقول باللات والعزى خيراً ..ففعل مكرهاً فتركوه فأتى النبي (ص) وهو يبكي لما فعل . ولم تسلم النساء المؤمنات من ذلك العذاب الذي سيم به الرجال، فتلك لبيبة جارية بني نوفل ، كان عمر يعذبها –قبل أن يسلم– حتى تفنن بها، ثم يدعها، وكان يقول لها :"لا أدعك إلا سأمة"، فتقول له :" كذلك الله بك إن لم تسلم، كذلك كان الحال لزنيرة حتى عميت فقيل لها :"إن اللات والعزى فعلا بك" فقالت :"وما يدري اللات والعزى من يعبدهما، ولكن هذا أمر من السماء، وربي قادر على رد بصري"، وقد رد إليها بصرها فقالت قريش : "هذا سحر من محمد"! (٦٦).

وقد كانت الهجرتان الأولى والثانية إلى الحبشة من بين الإجراءات التي بادرت القيادة النبوية إليها لحماية رموز الإسلام من وطأة الشدة وبطش قريش في مجموعة بلغ عددها عشرة وقيل أحد عشر وأربعة نسوة في السنة الخامسة من النبوة. وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت محمد (ص) وأبوه حذيفة بن عقبة وزوجته سهيلة بنت سهل، والزبير بن العوام، وقد بقوا هناك زمناً ثم أقبلوا على مكة لما بلغهم ما أشيع عن إسلام أهل مكة حتى إذا دنوا من مكة وبلغهم ما كانوا تحدثوا به في ذلك باطلاً، لم يدخل أحد منهم إلا بجوار أو مستخفياً .

وضمت الهجرة الثانية إلى الحبشة أيضاً اثنين وثمانين رجلاً خرجوا في مجموعات صغيرة ومتفرقة، فخرج جعفر بن أبي طالب مع مجموعة وتتابع خروج الآخرين، فيما بقي الرسول في مكة يدعو الناس للإسلام سراً وجهاراً مع طليعة من أشداء المسلمين، إذ أتاحت تلك المبادرة المجال للعناصر القوية من المسلمين في مكة لزيادة نشاطها بعد أن خُفف عنها عبء الدفاع عن مجموعة مستهدفة منها وأنها قد أصبحت هدفاً مباشراً لمشركي قريش.

وهكذا كانت عذابات الأنبياء والرسل ومن آمن معهم امتحاناً لإرادة الإيمان فيهم، وفيها حصة مشتركة ما بين كل مرحلة وجيل من أجيال الإيمان فيهم، وفيها حصة مشتركة ما بين كل مرحلة وجيل من أجيال الإيمان، وفيها وعد من الله بالنصر :

{أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب} .(البقرة : ٢١٤)

{وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين * وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين} . (آل عمران ١٤٦-١٤٧).

وبقدر ما أصاب رسل الدعوات الدينية السماوية من العناء والمكابدة فإن قدراً من ذلك العناء قد شمل أصحاب الدعوات الدينية غير السماوية وبقدر متفاوت من الشدة والقسوة، وهو ما تمثله أجزاء من سيرتهم، وما عبروا عنه في حديثهم، وتعتبر الزرادشتية من بين الدعوات الدينية الموحدة غير السماوية التي عانى متبنيها ما لم يعاني منه أصحاب الأديان الأخرى التي ذكرنا، لأن

تلك الأديان لم تغالب جوهر العقائد السائدة وقتها وهي الشرك والوثنية قدر ما غالبتها الزرادشتية.

حيث رفع زرادشت لواء الدعوة التوحيدية في وقت لم يكن أهل إيران كما ذكر مستعدين للإنصات له، إذ تعودوا على آلهتهم وأصنامهم التي كانت بالنسبة لهم حقائق ملموسة، وقد تلقى ذلك الشاب الذي تطوع إبان غزو التورانيون لبلاده على مدى عشر سنوات في عمل من أعمال البر في علاج المرضى ومساعدتهم – قدره من العناء بعد أن بدأ يطلب الحكمة في جبل سابلان، وقد مرت عليه عشر سنوات رهيبة كما وصفت وهو يبحث عن مؤمنين به، لقي خلالها من العنت والشقاء والعذاب الكثير.

فقد تخلى عنه أهله وعشيرته منذ أن أعلن فيهم رسالته، وطردوه فترك مسقط رأسه وراح ينتقل من بلد إلى بلد تسبقه إليه شهرته في أنه رجل يسب الدين والكهنة فيخشاه الناس ويأبون استضافته، فلم يجد أمامه إلا أن يبيت لياليه الطويلة في حظائر الخيل والبغال والحمير، ثم وجد بعد عشر سنوات من يدين به، ومضى بعدها إلى (بلخ) ليقدم نفسه للملك كاشتاسب قائلاً له :"أنا زرادشت سبتاما نبي الإله الواحد الحكيم جئت إليك أيها الملك لأحول قلبك من الأصنام الشريرة التافهة إلى مجد إله حق خالد حكيم"، وقدم بين يدي الملك وكهنته عرضاً وجيزاً وبليغاً لفكرته عن الإله الواحد الحكيم (أهورامزدا)، وصراع الخير والشر في الكون ومآله على نحو ما مر ذكره، ودخل في نقاش حاد ومتواصل مع الكهنة ورجال الملك استمر ثلاثة أيام وثلاث ليال أجاب خلالها على كل أسئلتهم، وكان من نتائج ذلك أن اعتنق الملك عقيدة زرادشت وأعلن اعترافه بزرادشت أنه النبي الحق لهذه العقيدة الجديدة، لكن زرادشت لم يسلم من كيد الكهنة الذين نصبوا له مكيدة رعناء، إذ أدخلوا في روع الملك أن زرادشت لم يكن سوى ساحر شرير، وإنه إذا ما أمر بتفتيش غرفته فسيكشف

حقيقة أمره، ومن هناك عاد رسل الملك حاملين رؤوس قطـــط وكـــلاب ميتـــة، وعظاماً من كل نوع وأظافر وشعراً مما كان يتخذ وسيلة للسحر في تلك الأيـــام، وفوجئ الملك بما رأى فأصدر أمره للقبض على زرادشت وإيداعه السجن، فيمـــا أمر الناس بالعودة إلى عقيدتهم الوثنية (٦٧). وبذلـــك فقد أسدل الســـتار علـــى فصل فريد من فصول الدعوة التوحيدية في ذلك الزمـــان، فيما ترك زرادشـــت وراءه تراثاً لا يستهان به من النصوص التي انتظمها كتاب "الآفستا" .

هذا فيما لم يلق "بوذا-غوتاما-" مقاومة تذكر من بيئته حيث أنه دعا فـــي البدء رفاقه الخمسة الذين زاملوه في فترة دعوته، ثم التف حول مجموعـــة مـــن الشباب بلغ تعدادهم الستين علمهم مبادئه، ووكل لكل منهم مهمة نشرها، ثم التف حول عدد كبير من الرجال والنساء الذين كانوا يتخـــذون مـــن بـــوذا مثالـــهم، وانتشرت دعوته المسماة بـــ"النظم" أو "عملية الشريعة" التي نشأت فـــي إطـــار الفكر الهندوسي في عامة مبادئها، ولـــم تلـــق أيـــة مقاومـــة حتـــى أن قبيلـــة (سروناباراننا) التي عرفت بالشراسة والخشونة كما ذكر قد قبلت دعوته، حيـــث استطاع مبعوثه (بورونا) باسلوبه المرن أن يجعلهم يؤمنون بالبوذية، ومثل ذلـــك فإن الجينية قد انتشرت على يد (مها ويرا) الذي ينحدر من أسرة الكاشتريا التـــي كانت تسيطر على أمور السياسة والحرب، بدون أن تلقـــى مقاومـــة تذكـــر، إذ سرعان ما استجابت له أسرته وعشيرته ثم أهل مدينته ، وأخذت دعوته تنتشـــر بين الملوك والقواد الذين رأوا في دعوته -التي تقوم على قهر الشهوة والتغلـــب على الرغبات المادية- ما يعبر عن خواطرهم في الثورة على البراهمة.(٦٨)

.. وهكذا فإن الإبلاغ الرسالي قد قطع مشوارا طويلا من العنـــاء والمكـــابدة وهـــو يشق طريقه في الساحة الإنسانية في مراحل متعاقبة من الجـــهد الجـــهيد حتى استقر على هذه الأرضية الصلبة التي تقف عليها الأديان بمثل هذا التسامي.

المبحث الخامس

بيانات التوحيد الديني
في الإسلام

- ☆ البيان التعميمي
- ☆ البيان التخصصي
- ☆ شواهد التوحيد الديني في المسيرة النبوية.

بيانات التوحيد الديني
في الإسلام

ينفرد الإسلام بوفرة البيانات التوحيدية على وحـــدة المســـار الرســـالي للأديان، على وجه التعميم في الذكر والإشادة، أو التخصيص بالشواهد والأحداث التي تبرزها النصوص القرآنية، والحديث والسيرة النبوية، وحيث تبدو مســـاحة البيان التوحيدي في مجال التعميم أكبر وأوضح مما في سائر الكتب المقدسة.

إذ نجد أن مساحة التخفيض على أشدها مـــن الوضـــوح فـــي الكتـــاب المقدس،حيث استأثرت الأحداث الخاصة بأنبياء بني إسرائيل الجزء الأكبر مـــن فصول العهـــد القديم، وفيما عدا التفصيل الذي كان في ســـفر التكويـــن، حـــول مسألة خلق الكون، وآدم، والطوفان، وإبراهيم ونبيه – كما مرت الإشارة – فـــإن "سفـــر الخروج " يسترسل في الأحداث الخاصة بالنبي الكريـــم موســـى وبنـــي إسرائيل في صلتهم بفرعون وحتى خروجهم من مصر، بينما تؤكـــد الفصـــول التالية وعلى نحو تفصيلي ما يكون من شأن أنبياء بني إسرائيل السابقين للنبـــي موسى – والذين عاشوا بين القرن الثامن والخامس قبل ميلاد السيد المســـيح – (عاموس، هوشع، أشعيا، ايليا، ناحوم، حبقوق، أرميا، حزقيـــال، أيـــوب، داوود وسليمان..) . في ما سار العهد الجديد على نهج التخصيص كذلك بالإشارة إلـــى بعض الأنبياء السابقين الذين أفادت بنوءاتهم بانبثاق العهد المسيحي، وبـــالأخص منهم "أشعيـــا" الذي ذكر أنه تنبأ بظهور يوحنا المعمـــدان (يحيـــى)، ويجـــري الاستشهاد بنبذ من أقواله في ذلك، إضافة إلى " أرميا " الذي ذكر أنه تنبأ بـــولادة السيد المسيح، فيما ذكر "إيليا " على أنه الموعود المنتظر، وأن موسى وإيليا قـــد ظهر في الجبل وهما يكلمان السيد المسيح بحضور بطرس، ويعقوب، ويوحنـــا – من تلاميذ السيد المسيح – . وإلى جانب ذلك فإن السيد المسيح يســـتطرد فـــي الإشارة إلى جملة من نصوص الشريعـــة الإسلامية الموسوية، مقابل ذلك فـــإن ثمة إشارات عابرة لبعض من دلالات الحوادث في عهود الأنبياء السابقين في ما

يفيد الدلالة الموضوعية التي كان يتقصدها السيد المسيح في أمثلته الوافرة كشواهد استدلالته، من مثل ذكره لبعض ما كان من أمر سفينة نوح – مما سبق ذكره – ، وما كان من قول الله: "أنا إله إبراهيم ، وإله إسحق، وإله يعقوب، وبقاء يونان "يونس" في بطن الحوت لثلاث ليال، وتوالي الاستشهاد بأقوال النبي موسى ومقابلتها بالمستجد من حكم شريعته على وفق الضرورات الظرفية.

ومقابل ذلك التخصيص امتاز القرآن الكريم بالاستفراد في استذكار الأسماء والشواهد في سير الأنبياء في أدوار شتى من مراحل الإبلاغ الرسالي، مع ما ذكر الحديث النبوي من ذلك، مستحضرا في ذلك شواهد امتثال الأنبياء جميعا للمطلب الرسالي العام في تثبيت نظرية الأيمان بالله وتمكين أحكامه التي تنطق بها الشرائع السماوية من أن تأخذ مكانتها في الوجود الإنساني، ومن المؤكد انه لم يرد في أي كتاب من الكتب المقدسة من ذكر لأسماء الأنبياء والحوادث الجارية في أزمانهم بمثل ما أورده القرآن والحديث النبوي الذي خص جملة الأنبياء والرسل بالذكر والتمجيد بأدوارهم ومواقفهم منتهجا في أسلوب العرض للأحداث النبوية صيغة التعميم في الموارد التي تتوافق فيها الأديان بالأيمان بالله على الجملة، وصيغة التخصيص في ما ينفرد به بعضها من شواهد اعتبارية ودلالية في المنهج الرسالي.

فقد أورد القرآن ذكر أكثر من عشرين نبيا على نحو متكرر، فيما خصص فصولا (سور) كاملة بأسماء الأنبياء (سورة آل عمران، سورة يونس، سورة هود، سورة يوسف، سورة إبراهيم، سورة طه، سورة لقمان، سورة محمد، سورة نوح)، وأفرد سورة خاصة باسم السيدة العذراء (مريم)، وسورة أخرى لـ "الأنبياء" في جملتهم.

ومن المفيد لإدراك مضمون هذا التوجه، استعراض النصوص الموضحة لكلا النوعين من بيانات التوحيد الديني في القرآن الكريم وثم في جملة الحديث والسيرة النبوة.

أولا: البيان التعميمي

يمضي القرآن في مجال البيان التعميمي في استذكار أسماء الأنبياء والأديان التي لها حضور متميز في ساحة الموقف الديني في ما يفيد كونها كلا موحدا لا يتجزأ في تكامل النظرة الإيمانية حول " الله "، وتحدد النصوص القرآنية خط الشروع من مبتدأ دعوة النبي نوح على وجه التعميم، وعلى وجه التخصيص من دعوة أبو الأنبياء مجدد العهد التوحيدي إبراهيم عليه السلام، والذي تعده الأديان السماوية الماثلة رمزها ورائد مسيرتها وهي تنتسب إلى دوحته انتساب أنبيائها إلى أنساله.

حتى أنه لا يكاد أي دين من الأديان السماوية الحاضرة أن.يهمل أو يتجاوز هذه الحقيقة والتي تمثل الدلالة الحيوية على أن البناء الأيديولوجي للأديان السماوية يقوم على أساس الصرح الإبراهيمي، وأن فروع الانتساب لرسلها ليست إلا فروع النسل الإبراهيمي، وعلى ذلك فإن القرآن الكريم قد استصفى ثمار المنهج التوحيدي في شائع الرسالات السماوية منذ مطلع البيان الرسالي لسيدنا إبراهيم، والبيانات اللاحقة لأنساله من الأنبياء ليصوغها في دستور الإسلام، الذي تؤكد نصوصه بكل وضوح وحدة الموقف الرسالي على وفق الحقيقة الكبرى التي أخذ كل نبي قسطه منها على قدر ما يستطيع.

وفي تقديرنا فإن الامتياز الكبير الذي منح للرسول محمد (ص) في المطاولة في ساحة الموقف الرسالي، مع ما كان فيها من ألوان وصور المواجهة الحاسمة مع قوى الشرك والتي امتد شوطها عقودا من الزمن بعد ذلك لتجتث قواعد الشرك في مساحة كبيرة من الأرض، ذلك الامتياز قد عد تكريسا وبلورة

لمجمل المنهج الرسالي الذي اختطت الرسالات السماوية سبله ومارست أدواتــها فيه بالجهد المثابر، وأن الموقف الحاسم والجرئي الذي انتهجته الرسالة الإسلامية وهي تشق بالفتح المبين طريق التوحيد لتبلغ من أقاصي الأرض – قد استنهض عزائم الشتات الرسالي التي وجدنا أنها قد عبرت في أكثر مــن موقــف عـن التحامها وانطواءها تحت لواء ذلك المجد التوحيدي.

والنصوص القرآنية قد أرست المنهج الدينــي الموحد ضمن اعتبــارين أساسيين:

الأول: وضع "الله، ملاكه السماوي، وكتبه، ورسله" في دائــرة الأيمــان الموحد، واعتبار "الإسلام: بمعنى التسليم لله – البؤرة المركزية للدائرة الإيمانية، والتي يجسد الالتزام بمنهجها قطرها وقاسمها المشترك، وتعتبر القرآنية التاليــة من دلالات ذلك:

قال تعالى : (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) (البقرة: ٢٨٥).

وقال تعالى: (قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون). (آل عمران: ٨٤).

وقال تعالى : (وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون) (العنكبوت: ٤٦).

وقال تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون). (البقرة: ٦٢).

الثاني: الإقرار بوحدة المصدر التشريعي للأديان السماوية. مع الحق في احتكام أهل كل دين بما يرد في أصول شرائعهم مع الاعتبار بالضرورات الموضوعية لكل مرحلة من مراحل الإبلاغ الرسالي وبيئتها، ويقر القرآن الكريم في ذلك أن لكل أمة شرعتها ومنهاجها، وأن كل رسول قد بلغ بلغة قومه، وأن التفريق في طبقية الأحكام لا يتعارض مع المقاصد التشريعية، وأن مثله كمثل التفريق بين طبائع الأمم والشعوب تبعا للواقع الظرفي (البيئي)، فيما تتلازم الاعتبارات القيمة العليا وتتوافق توافق وانشداد الفروع إلى الأصول، حيث تلتقي الأفرع في الأصل كالتقاء الأنهار في خلجانها.. وفي ذلك نقرأ من نصوص القرآن الكريم:

(شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذين أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه..) (الشورى: ١٣).

(وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون). (المائدة: ٤٨).

(وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله.. * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا

من كتاب الله وكانوا عليه شهداء . . ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون
* وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن
بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم
الظالمون) . (المائدة :٤٣- ٤٥).

(وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين *
وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) .
(المائدة: ٤٦ – ٤٧).

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . .) . (إبراهيم: ٤).

ثانيا: البيان التخصيصي

وهو البيان الذي تتضافر فيه موارد الأحكام والأحداث التي تختص بنبي أو بدين لوحده في ما يرد ضمن النصوص القرآنية، أو ضمن الحديث والسيرة النبوية كدلالات أو شواهد اعتبارية تكرس لخدمة المسار الرسالي العام، حيث وردت في ذلك الكثير من الشواهد وفيها ما يتوافق مع ما يرد في الكتاب المقدس وفي أمثلة ذلك:

- ورد عن سيد الأنبياء إبراهيم ما يختص بدعوته لقومه لنبذ الشرك والأيمان بالله الواحد، وما كان في أمر الانتقام منه بإلقائه في النار – مما سبق ذكره – وأن إبراهيم قد طلب من ربه أن يريه "كيف يحيي الموتى" ليوفر لنفسه دليلا يتيقن به قدرة الله على الخلق وإعادته، ويجاب إبراهيم عليه السلام على تلك الصورة التي عرض لها القرآن الكريم:

{وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم}. (البقرة: ٢٦٠)

{ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك قال لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين} . (الأعراف: ١٤٣).

وفي بلاغات القرآن ما يفيد بأن جل الأنبياء سألوا فأعطوا بيانات وبينات تساعدهم على أداء وظائفهم الرسالية، فقد سأل نوح ربه أن يعينه على أمر قومه بعد أن دعاهم ليلا ونهارا، سرا وجهارا فازدادوا عتوا وطغيانا، فكان دعاؤه عليهم بالويل والثبور، وعلى نحو ما يفيد البلاغ القرآني:

{قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا * ومكروا مكرا كبارا * وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا * وقد أضلوا كثيرا ولا تزد الظالمين إلا ضلالا * مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا * وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا} (نوح: ٢١ – ٢٧).

فكان ذلك الطوفان – الذي جئنا على ذكره فيما سبق – ودعا زكريا به أن يهبه الذرية الصالحة وهو كبير السن، فاستجاب له ربه بأن وهبه يحيى (يوحنا):

{هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين}. (آل عمران: ٣٨ – ٣٩).

- ومن قبلها سأل إبراهيم ربه أن يهبه وهو في كبره ولدا صالحا، فاستجاب له ربه بأن بشره باسحق:

{رب هب لي من الصالحين * فبشرناه بغلام حليم} (الصافات: ١٠٠ – ١٠١).

- وسأل موسى ربه أن يعينه على أمر فرعون بأن يعهد لأخيه هارون بأن يقول عنه ما لم يتمكن من إبلاغ فرعون، فاستجاب له ربه على نحو ما ذكر في القرآن الكريم مما يتأيد ذكره في الكتاب المقدس:

{قال رب اشرح لي صدري* ويسر لي أمري* واحلل عقدة من لساني* يفقهوا قولي * واجعل لي وزيرا من أهلي* هرون أخي* اشدد به أزري* وأشركه في أمري* كي نسبحك كثيرا* ونذكرك كثيرا* إنك كنت بنا بصيرا* قال قد أوتيت سؤلك ياموسى} . (طه ٢٥ – ٣٦).

- والكثير من تلك البيانات والشواهد التخصصية المقترنة بمواقف الإبلاغ الرسالي مما يذكر في القرآن مما يحتاج إيرادها مؤلفا كاملا، وقد كان لخاتم الرسل والأنبياء محمد (ص) بعضا من تلك الأماني والرغبات ما يعزز دوره في أداء وظيفته الرسالية، ومن تلك الأماني ما تطلع إليه الرسول الكريم في أن تحول قبلة المسلمين من بيت المقدسة إلى الكعبة المشرفة في مكة لتكريس التوجه الروحي إلى منطلق الرسالة الإسلامية، وقد واجه هذا الحدث ابتداء مواقف مناهضة تمثلت بارتداء البعض ممن آمن "شكا في الدين وظنا أن النبي في حيرة من أمره"، حيث كان المسلمون في مكة في بادئ الأمر يستقبلون في صلاتهم الكعبة، ولما هاجر الرسول (ص) إلى المدينة أمر باستقبال بيت المقدس واستمر ذلك لمدة ستة وقيل سبعة عشر شهرا مما قيل أنه "تألفا لليهود".

ثم كان الأمر بالتحول منها إلى الكعبة، إذ كان النبي (ص) كما يرد في النص القرآني يتطلع إلى الوحي متشوقا للأمر باستقبال الكعبة، ومنطلقا في ذلك من

كـون الكعبة قبلة إبراهيم، وإن ذلك ادعى إلا إسلام العرب، وقـول اليـهود: "يجحد ديننا ويتبع قبلتنا".

وقول المشركين: "يدعي ملة إبراهيم ويخالف قبلته"(٧٠) فكان القرار في نهايـة المطاف بالتوجه لاتخاذ الكعبة قبلة للمسلمين لصالح التوجه المستقل للمسـلمين لتتوسط أمة الاسلام في ذلك بين عقائد الرسالات الأخرى التي ما كان لمعتنقيـها أن يتبعوا بعضهم قبل بعض، وأن ذلك كان – كما ذكر البلاغ القرآني لاختبـار "من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه"، وهو ما جرى إيضاحه في مضـامين الآيات (١٤٤ – ١٥٠ من سورة البقرة).

ثالثاً: شواهد التوحد الديني في السيرة النبوية

تحفل السيرة النبوية بالكثير من شواهد الدلالة على وحـــدة المنطلقــات الأساسية للرسالات الدينية في سلسلة من الوقائع والأحاديث النبوية، ففي مشـــهد الإسراء والمعراج جرى لقاء النبي محمد (ص) بـــأبرز الأنبيـــاء أثنـــاء إيفـــاده الروحي إلى رحاب الملكوت السماوي، وتشير الرواية الإسلامية إلى أنـــه (ص) قد التقى هناك بخاصة الأنبياء في كل سماء من السماوات السبع:

- ففي السماء الأولى (سماء الأرض) التقى أبا البشر آدم عليه السلام.
- في السماء الثانية التقى عيسى ابن مريم ويحيى بـــن زكريـــا عليـــهما السلام.
- وفي السماء الثالثة – التقى يوسف من عمران عليه السلام.
- وفي السماء الرابعة – التقى إدريس – عليه السلام.
- وفي السماء الخامسة – التقى هارون بن عمران عليه السلام.
- وفي السماء السادسة – التقى موسى بن عمران عليه السلام.
- وفي السماء السابعة – التقى إبراهيم عليه السلام.(٧١)

وأنـــه قد صلى معهم في بيت المقدس، وتبادل معهم الحديث، وكان لـــه مع النبي موسى بن عمران حديث مطول.

وفي مدار النهج الرســـالي كـــان للنبـــي محمـــد (ص) مـــن اللقـــاءات والمخاطبات ما يعزز القناعة بالمنحى التوحيدي للرسالة الإسلامية، وفي كتابـــه

التالي إلى معشر اليهود ما يشير إلى دلالة التواصل المبدئي ما بين شريعتي الرسولين الكريمين موسى ومحمد:

"بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب موسى وأخيه والمصدق لما جاء به موسى: ألا إن الله قد قال لكم يا معشر أهل التوراة، وإنكم لتجدون ذلك في كتابكم:

"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ به الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما".

"وإني أنشدكم بالله، وأنشدكم بما أنزل عليكم، وأنشدكم بالذي أطعم من كان قبلكم من أسباطكم المن والسلوى، وأنشدكم بالذي أيبس البحر لآبائكم حتى أنجاكم من فرعون وعمله، ألا أخبرتموني: هل تجدون في ما أنزل الله عليكم أن تؤمنوا بمحمد ؟، فإن كنتم لا تجدون ذلك في كتابكم فلا كره عليكم "قد تبين الرشد في الغي، فأدعوكم إلى الله وإلى نبيه".

وقد عبر الرسول محمد (ص) في المؤتمر التاريخي الذي عقد في يثرب (المدينة) حين قد م وفد نصارى نجران لمناقشته في أمر ديانته عن ذلك الهدف المركزي لمجمل رسالات السماء، إذ أملى في هذا المحفل قوله تعالى:

{قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون}. (آل عمران: ٦٤).

وحين سأل هؤلاء محمدا (ص) عمن يؤمن به من الرسل نطـــق بقولـــه تعالى:

{قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} (آل عمران: ٨٤).

كذلك عبر الرسول محمد (ص) في قصتـــه مـــع الغـــلام النصرانـــي (عداس) عن مغزى (الأخوة في الله)، فحين أغرى به سفهاء ثقيف والجأوه إلـــى حائط لعتبة وشيبة – كما مر ذكره – فظن ذلك الغلام وهو يقدم طبقا من العنـــب إليه لقوله (ص) حين مد يده ليأكل: "بسم الله، فنظر إلى وجهه وقال:

"والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد" فقال له رسول الله (ص): "ومـــن أي البلاد أنت يا عداس" وما دينك" ؟، قال: "نصراني، وأنا رجل من أهـــل نينـــوى" فقال له الرسول (ص): "من قرية الرجل الصالح يونس بني متي" ؟، فقال عداس:

"وما يدريك ما يونس بن متي ؟ "، قال (ص):

"ذلك أخي، كان نبيا وأنا نبي"، فاكب عداس على رسول الله يقبل رأســـه ويديه وقدميه. (٧٢).

وعبر الرسول في حديثه التالي عن حقيقة كون الرسالة الإســـلامية قـــد استكملت وصنع آخر لبنة من الصرح المنيف للعمارة الدينية، ليكون تمام ذلـــك الصرح الرسالي على يد خاتم الأنبياء والرسل محمد (ص):

"مثلي ومثل الأنبياء كرجل بنى دارا فأكملها وأحسنها إلا موضـــع لبنـــة فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ويقولون لولا موضع هذه اللبنة" (٧٣).

وبعد ذلك فإنك لتجد في مجمل أحاديث وسيرة الرسول محمد (ص) استحضارا لمنهج وقيم الرسل السابقين، فقد ذكر أنه (ص) كان يعوذ الحسن والحسين بما كان يعوذ به جده إبراهيم الخليل ولديه إسماعيل واسحق:

"أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة".

وكان يشيد بصيام وصلاة النبي داوود عليه والسلام فيقول: "أحب الصيام إلى الله صيام داوود عليه السلام كان يصوم يوما ويفطر يوما، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داوود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه" (٧٤).

.. وكان الرسول محمد (ص) يحدث صحابته بالكثير من وصايا الأنبياء السابقين ومضامين صحفهم، ومن ذلك ما حدث به (ص) من وصايا النبي نوح لابنه:

"إني موصيك بوصية وقاصرها لكي لا تنساها، أوصيك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين، إما اللتان أوصيك بهما فيستبشر الله بهما وصالح خلقه، وهما يكثران الولوج على الله؛ أوصيك: بلا إله إلا الله، فإن السموات والأرض لو كانتا حلقة قصمتهما، ولو كانتا كفة وزنتهما، وأوصيك. بسبحان الله وبحمده، فإنهما صلاة الخلق، وبهما رزق الخلق، وأن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون لتسبيحهم إنه كان حليما غفورا"، وإما اللتان أنهاك عنهما، فيحتجب الله منهما. وصالح خلقه، أنهاك: عن الشرك والكبر" (عن سليمان بن يسار).

وعن الحارث الأشعري قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله تبارك وتعالى أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات أن يعمل بها وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فأما أن تأمرهم بها أو أن آمرهم بها، فقال يحيى عليه السلام:

أخشى إن سبقتني أن يخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فـــامتلأ المسجد بهم وقعدوا على الشرف.

فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركـــم أن تعملـــوا بهن، أولاهن:

أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فإن مثل من أشرك بالله كمثل رجـــل اشترى عبدا من خالص ماله بذهب أو ورق، وقال: هذه داري، وهـــذا عملـــي، فاعمل وأد إلي، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبـــده كذلك ؟،

والله تعالى أمركم بالصلاة فإذا صليتم ما لم يلتفت، وأمركم بالصيــــام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، وإن ريح فم الصـــائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفدي نفسي منكـــم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

وآمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو فـــي أثـــره سراعا حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم وكذلك العبـــد لا يحـــرر نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى" (أخرجه الترمذي، وابن حزيمـــة، وابـــن حيان، والحاكم).

وعن أبي ذر أنه سأله (ص) عما في صحف إبراهيم فقال:

"وكانت أمثالا كلها.. أيها الملك المسلط المبتلي المغرور، إني لم أبعثـــك لتجمع الدنيا بعضها على بعض، ولكني بعثـــتك لترد عني دعوة المظلوم، فـــإني لا أردها وإن كانت من كافر، وعلى العامل ما لم يكن مغلوبا علـــى عقلـــه أن يكون له ساعـــات، فساعة يناجي بها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وســـاعة

يتفكر فيها في صنع الله عز وجل، وساعة يخلو فيـــها لحاجتـــه مـــن المطعـــم والمشرب".

"وعلى العاقل أن لا يكون ظاعنا إلا لثلاث: تـــزود لمعـــاد، أو مرمـــة لمعاش، أو لذة لغير محرم، وعلى العاقل أن يكون بصيرا بزمانه، مقبـــلا علـــى شأنه، وحافظا للسانه، ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه فيما لا يعنيه".

وعن ما في صحف موسى عليه السلام، قال (ص):

"كانت عبرا كلها، عجبت لمن أيقن بالموت ثم هو يفرح، عجبـــت لمـــن أيقن بالنار ثم هو يضحك، عجبت لمن أيقن بالقدر ثم هو ينصب، عجبت لمـــن رأى الدنيا وتقلبها بأهلها ثم اطمأن إليها، عجبت لمن أيقن بالحساب غدا ثـــم لـــم يعمل". (عن ابن حيان، الحاكم – صحيح الاسناد). (٧٥).

وفي مضمون الحديث النبوي التالي ما يفيد تقرير أنصبة السابقين مـــن الرسل من الجهد الرسالي بالتعاقب، وكون الحصة الأكبر من العائـــد قد كـــانت من نصيب المسلمين الذين وأتتهم الفرصة على عهد نبيهم محمد (ص) لتحقيـــق ذلك القدر من الإنجاز الرسالي، وبالتالي فقد تقررت لهم أنصبة أكبر من العـــائد النهائي:

"إنما أجلكم في أجل من خلا من الأمم ما بين صلاة العصر إلى مغـــرب الشمس، وإنما مثلكم ومثل اليهود والنصارى كرجل استعمل عمالا فقـــال: مـــن يعمل إلى نصف النهار على قيراط قيراط، فعملت اليهود إلى نصف النهار علـــى قيراط قيراط، ثم قال من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصـــر علـــى قيراط قيراط فعملت النصارى من نصـــف النهار إلى صلاة العصر على قـيراط ثم قال من يعمل من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قـــيراطين

قال فأنتم الذين يعملون من صلاة العصر إلى مغرب الشمس على قيراطين قيراطين ألا لكم الأجر مرتين". (٧٦)

وتجد في مثال السيد المسيح عن "العمال في الكرم" صورة متقابلة لذلك إذ يخلص فيها إلى القول: "هكذا يصير الآخرون أولين، والأولون آخرين" (متى ٢٠ : ١٦).

ويستفاد من منطوق الآيات القرآنية التالية أن الرسالة الإسلامية قد مثلت عملية استذكار واستحضار متجدد لمجمل الفكر الرسالي السماوي وتأكيدا لحقائقه وأصوله إثر ما انتاب هذا الفكر على توالي القرون التي أعقبت رسالة السيد المسيح من تداعيات، مع بيان وجه التنازع بين اليهود والنصارى في أن كلا منهم بعد نفسه الأحق بالأتباع مع كونهم أصحاب كتاب وشريعة ذات مصدر ومقصد واحد:

{يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير}. (المائدة: ١٩).

{وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون}. (البقرة: ١١٣).

{وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين* بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا

خوف عليهم ولا هم يحزنون}. (البقرة ١١١ – ١١٢).

ولما افتخر المسلمون وأهل الكتاب نزل قوله تعالى في تقرير كون الافتخار هو بالعمل الصالح:

{ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد من دون الله وليا ولا نصيرا * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا}. (النساء ١٢٣ – ١٢٤).

* * *

ومن يستجلي الأصول التاريخية للفكر الديني لا يمكنه أن يخرج عن إطار تلك الدائرة التي تشكل محيط الأديان السماوية ومحورها جميعا "الأيمان بالله"، وإتباع ما أوجب من تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وتوحي النصوص القرآنية لتلك الحقيقة:

"الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي معه أولئك هم المفلحون". (الأعراف: ١٥٧)

.. وذلك ما نجده شاخصا في مجمل الأدب الديني، وأن الأنبياء وتابعيهم قد انخرطوا في جادة التسليم لله تحقيقا لدعاء أبو الأنبياء إبراهيم في أن تكون ذريته على هذا النهج:

{ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا..} (البقرة: ١٢٨).

.. وفي هذا كله ما يؤكد الرافد المشترك لدعوة الأديان السماوية إلى التسليم بوحدانية الله، وقد دأبت النصوص القرآنية على تذكير أهل الأديان جميعا بذلك، ودعوتهم إلى الرجوع لها كمنطلق يفهم منه كون الإسلام هو دينهم النهائي الذي استكملت شريعته مهمة الإبلاغ الرسالي التوحيدي في وقت تدعوهم إلى الاحتكام إلى أصول شرائعهم بلا لبس ولا غموض، إذ أن التمسك بجوهر عقائدهم الدينية إنما يحقق هذه الغاية:

{قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون} (آل عمران: ٦٤).

{يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم}. (المائدة: ٦٨).

{ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم}. (المائدة: ٦٦).

* * * * * *

المبحث السادس

من شهادات التوافق بين الأديان

- ول.ديوارنت : شواهد التوافق في المنهج الرسالي.
- الأب د.جورج شحاتة قنواتي : "المبادئ المشتركة بين الكتاب المقدس والقرآن الكريم".
- المطران جورج خضر : المسيحية والعربية .
- ابن تيمية : نُبذ من دلائل التوافق.

من شهادات التوافق بين الأديان

هنـــاك الكثير ممن أدلوا بشهاداتهم الحقة في ما يكــــون بيـــن الأديـــان السماوية خاصة -من التوافق في الأحداث والأحكام على حد سواء، ومن بيـــــن تلك الشهادات الكثيرة اخترنا بعضاً مما أدلى به الكثير من أهل التاريخ والديـــن، تاركيـــن الشهادة الأوثق والأدل في ذلك مما كان في منهج خاتمـــــة الرســـالات الدينية إلى موضوع مستقل آخر في غير هذا المبحث .

ول.ديورانت: شواهد التوافق في المنهج الرسالي

أورد المؤرخ ول.ديورانت في موسوعته "قصة الحضارة جملة من شواهد التوافق ما بين الأديان السماوية مستقاة من مصادرها الحيوية، ومن أبرزها :

١) التماثل في الخطاب الرسالي ما بين القرآن والكتاب المقدس في عهديه القديم والجديد، فسور القرآن ما عدا الفاتحة تعد كما يقول: حديثاً من الله أو جبريل إلى النبي أو أتباعه أو أعدائه، وتلك هي الطريقة التي سار عليها أنبياء بني إسرائيل،وهي التي تراها في كثير من فقرات أسفار موسى الخمسة، وأن محمداً كان يعتقد بأنه ما من قانون أخلاقي يمكن أن يقع في النفوس، وأن يطاع طاعة تكفل للمجتمع النظام والقوة إلا إذا آمن الناس أنه منزل من عند الله، وهذه الطريقة تتفق مع الأسلوب الحماسي الفخم ومع البلاغة اللذين يسموان في بعض الأحيان في أقوال النبي أشعيا، وأن في السور المكية الأولى نغمات موسيقية رنانة وأسلوب جزل قوي لا يدركه إلا الملمون باللغة العربية .

٢) في موضوع الإيمان يذكر أن كلاً من اليهودية والمسيحية والإسلام ترى أن ما يحتاج إليه المجتمع السليم هو الإيمان فإن هذا الكون خاضع لحكم أخلاقي مسيطر على شئونه، وأن الأديان الثلاثة قد أعانت على تكوين عقيلة الناس في العصور الوسطى مجمعة كلها على أن هذه الفضيلة الكونية هي الله الواحد ذي الجلال، غير أن المسيحية أضافت إلى هذه العقيدة أن الله الواحد يظهر في ثلاثة أقاليم مختلفة، إما اليهودية والإسلام فتريان أن هذا الاعتقاد ليس إلا شركاً مقنعاً، وتعلنان وحدانية الله بأقوى الألفاظ وأشدها حماسة، وفي القرآن

سورة خصصت كلها لهذا الغرض، هي السورة الثانية عشـرة بعـد المائـة-سـورة الإخلاص- وأن المؤذنين يرددون ذلك من فوق مئات الآلاف من المآذن كل يـوم.

٣) بمثل ما يرد في العهد القديم من الكتاب المقدس أن "يهوه" -الله- قـد طمس على قلب فرعون فجعله قاسيا، كذلك يرد في القرآن عن الكـافرين: {إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرا وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا}.(الكهف: ٥٧)، وأن ذلك يتأكد بنفس القوة التي يؤكد بها القديس أو غسطين أثالة :{ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين} "السجدة: ١٣".

٤) إن محور الذي تدور عليه المبادئ الأخلاقية في القرآن الكريم كمـا هو في الحال في كتاب العهد القديم هو خوف العقاب، ورجاء الثواب في الحيـاة الآخرة {اعلموا أنما الحيوة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد . .} (الحديد:٢٠)،وأن القرآن الكريم كبعض العقائد المسيحية يعنى كمـا يظهر بصحة الإيمان أكثر مما يعنى بالسلوك الطيب، فهو كثيرا ما ينذر مـن لا يقبلون دعوة النبي بعذاب النار في الآخـرة كمـا فـي (آل عمـران الآيـات: ٤،٥٦،١٣١، وسورة النساء: ٥٦،١١٥، والتوبة : ٦٣..الـخ) وإذا لـم تكـن الذنوب كلها بدرجة واحدة ولا نوعا واحدا فقـد جعلت النار سبع طبقـات كـل طبقة من العذاب ما يتناسب مع الذنب الذي ارتكبه المذنب، ففيها الحرارة التـي تشوي الوجوه، وفيها الزمهرير، وحتى من يستحقـون أخف العـذاب يلبسـون أحذية من نار، ويشرب الضالون المكذبون من الجحـيم وشرب الهيم (الواقعـة ٤٠ وما بعدها)، وربما كان دانتي قد ابصر بعـض الرؤى التي وضعـها فـي ملهاته في القـرآن، إلا أن الجنة في القرآن واضحة وضوح صورة النـار، وأن

الجنة مقر المؤمنين الصالحين والذين يموتون في سبيل الله، والفقراء يدخلونها قبل الأغنياء.

وأن القانون والأخلاق في القرآن، كما في التلمود شيء واحد، فالسلوك الديني في كليهما يشمل أيضاً السلوك الدنيوي، وكل أمر فيها يوحي بها من عند الله، ويشير القرآن إلى نفس الحقيقة التي سبق وأن أشار السيد المسيح إليها من أكل بعض الأحبار والرهبان لأموال الناس بالباطل: {يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله} . (التوبة: ٣٤).

٥) يصف محمد النساء كما يصف آباء الكنيسة المسيحية بأنهن من أكبر الشرور التي أصيب بها الرجال، ويظن أن مصير الكثرة الغالبة منهن هو الجحيم - (وهذا رأي نرى أن لا حجة فيه في القرآن ولا مجمل الحديث النبوي، ولا في مجمل تعامل الرسول محمد مع نسائه)، فيما يعلل ديوارنت إباحة الإسلام لتعدد الزوجات أنه ليعوض بكثرة النسل نسبته الوفيات العالية بين الذكور والنساء على حد السواء ولطول فترة النفاس وما يحدث في البلاد الحارة من نقص سريع في قوة الإخصاب -ولكنه حدد عدد الزوجات الشرعيات بحيث لا يزدن على أربع- وأن الإسلام قد أباح الطلاق للرجل كما أباحه التلمود، وللمرأة أن تطلق نفسها من زوجها بأن ترد له صداقها -مستدلاً بمضمون الآية ٢٢٩ من سورة البقرة، فيما كان النبي لا يشجع على الطلاق، كما أن القرآن نفسه يحض على عدم قطع العلاقة الزوجية إلا بعد أن تبذل الجهود للإصلاح بين الزوجين {وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما} . (النساء: ٣٥) .

٦) في معرض حديث ديوارنت عن القران والدين والدولة يشير إلى عقيدة الإسلام المشتركة ما بين الطبقات والأجناس والتي تمثلت في قول النبي

محمد: (اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة) معقباً على ذلك بقوله :"إنها لعمري أعظم معجزة للمسيحية والإسلام، وأن الذين يجهلون الإسلام هم وحدهم الذين يظنون أنه دين سهل من الوجهة الأخلاقية، منوهاً إلى أن القرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد وأقلها غموضاً وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية، وأن الإسلام قد علم الناس أن يواجهوا صعاب الحياة، ويتحملوا قيودها بلا شكوى ولا ملل وتحثهم في الوقت نفسه إلى التوسع توسعاً كان أعجب ما شهده التاريخ كله .

٧) إن المبادئ التي وردت في النصوص القرآنية: {فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم} (البقرة: ١٩٤)، {ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل} (الشورى ٤١)، تمثل الأخلاق التي تليق بالرجال، وهي شبيهة بما جاء في العهد القديم فهي تؤكد فضائل الرجولة كما تؤكد المسيحية فضائل الأنوثة، وليس في التاريخ غير دين الإسلام يدعو اتباعه على الدوام إلى أن يكونوا أقوياء، ولم يفلح في الدعوة دين آخر بقدر ما أفلح الإسلام : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا..) (آل عمران)، وهكذا يقول أيضاً زرادشت الذي نادى بمبادئ نيتشة قبل وجود نيتشة بزمن طويل .

وأن القرآن قد عرّف الدين وحدده تحديداً لا يجد فيه المسيحي ولا اليهودي الصحيح العقيدة ما يمنعه في قبوله مستدلاً بالآية ١٧٧ من سورة البقرة .

الأب د.جورج شحاتة قنواتي
المبادئ المشتركة بين الكتاب المقدس والقرآن

عبر الأب الدكتور شحاتة في بيانه للمبادئ المشتركة ما بين المسيحية والإسلام، خير تعبير عن أوجه التوافق في الأطروحة الرسالية ما بينهما فيما استدل به من النصوص الواردة في شرائعها وكما هو مبين أدناه :

- **في مسألة التوحيد الإلهي:**

أجرى مقارنة حيّة ما بين النصوص الواردة في الكتاب المقدس ، والقرآن الكريم- مما ورد ذكره في فصل التوحيد.

- **خلق الله السموات والأرض:**

إن الله هو الحي ولهذا تجلى في خلقه "خلق في البدء السموات والأرض" (التكوين ١:١)، هو "بديع السموات والأرض" (قرآن ٢:١١٧)، هو الخلاق المصور الذي يعمل ما يشاء من غير أن يجبره على ذلك سواه: "يداك صنعتاني وكونتاني" (مزامير١١٨:٧٨)، و"الجميع يرجو منك لترزقهم أكلهم في أوانه، تحجب وجهك فيفزعون، وتقبض أرواحهم فيموتون، ترسل روحك فيخلقون، وتحد وجه الأرض" (مزامير ١٠٣: ٢٧-٣٠)، هو البر الرحيم المقيت، الوهاب، الرزاق، .. وورد في القرآن "وما كنا عن الخلق غافلين" (٢٣:١٧)، وفي أعمال الرسل ورد "إنا به نحيا ونتحرك ونوجد" (١٧:٢٨).

- **الله محب البشر :**

هو الأكرم اللطيف الخبير الولي المهيمن "رأى الأب جميع البشر، من قصر جلوسه، راقب سكان الأرض أجمعين، هو جابل قلوبهم جميعا وعالم

بأعمالهم كلها" (مزامير ٣٢: ١٣-٢٥)، ونجد نفس الأسماء تستعمل في القـــرآن لتؤدي نفس المعنى مثل :"إن الله كان على كل شيء حسيبا".

ونذكر من القرآن مما ورد عن محبة الله للبشر :(يحب التوابين "٢:٢٢٢"، يحـب المتطهرين "٢:٢٢٢"، يحب المتقين "٣:٧٦" يحب الصـــابرين "٣:١٤٦" يحـب المتوكلين" ٣:١٥٩" يحب المتقين ٥:٤٢، ٤٩، ٩: ٦٠:٨، يحب الذيـــن يقـــاتلون ٦١:٤) .

- الله ذو الغفران والرحمة :

وردت في القرآن مئات من المرات أن الله رحيم، غفور، وأنه كتب على نفسه الرحمة، وأن عنده خزائن الرحمة، إنه الرحمن الرحيم، أرحم الراحميـــن- وأننا لنجد نفس المعنى ونفس التعبير في العهد القديم والعهد الجديد، فورد مثـــلاً في سفـــر الخروج (٣٤: ٦-٧) أنه "إله رحيم، رؤوف، طويـــل الأنـــاة، كثـــير المراحم والوفاء، يحفظ الرحمة لألوف ويغفر الذنب والمعصية والخطيئـــــة، ولا يزكى أمامه الخاطئ".

لذلك لا خوف للمؤمن إذا ما اعترف بخطيئته، وتاب وطلـــــب مـــن الله الغفران "يا رب، يا سيد، استمع صوتي، لتكن أذناك مصغيتـــــان إلـــى صـــوت تضرعي، إن كنت للآثام راصداً يا رب، يا سيد فمن تعف" (مزامير: ١٢٩: ١-٣)، "ارحمني يا الله بحسب رحمتك وبحسب كثرة رأفتك، امح معاصي، زدنـــي غسلاً في إثمي وطهرني من خطيئتي ..إليك وحده خطئت وأمام عينك صنعـــت الشر.. قلباً طاهراً .. وروحاً مستقيماً، جدد في داخلي.. ولا تنزع مني روحـــك القدوس" (مزامير: ٥٠: ٣-٦،١٢-١٣) .

وتجد معاني متشابهة في الآيات القرآنية: "إن الإنســـان خلـــق هلوعـــاً" (١٩:٧)، وأنه "لظلوم كفار" (١٤:٣٤) ، وبذلـــك فـــإن المســـيحي والمســـلم –

واليهودي – إذن يستطيع أن يدعو الله قائلاً: "التفت إلـــيّ يـا الله، وارحمنـــي" (مزامير ١٦:٥٨)، لأنه هو التواب، يتوب إلى البشر قبل أن يتوبوا إليه، فيغفـــر لهم ذنوبهم وخطاياهم: "واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه، إن ربــــي رحيــم ودود" (٩٠:١١)، ولأن الله :"كتب على نفسه الرحمة"(١٢:٦)، وقد جاء فـــي الحديــث الشريف:"إن رحمتي سبقت غضبي".

- **الله هو الحميد المجيد :**

هو الخالق الكريم والحاكم الرحيــم هو نور الســموات والأرض "نــور على نور" (قران ٣٥:٢٤)، هو ملك وليس إلهاً، لبس الرب العزة وتنطق ..مـــا أعظم الرب في العلي، شهادتك صادقة جداً، ببيتك تليق القداسة يـــا رب طــول الأيام" (مزامير ٩٢: ١-٥)، إذ هو ذو الجلال والإكرام لأنه "صنع كــل شـــيء" (مزامير ١١:١١٣)، ويردد المسيحيون والمسلمون –واليهود– من جيـــل إلـــى جيل، أنه هو القدوس العظيم، العلي، الجليل الواسع :"وعنده مفـــاتح الغيــب لا يعلمها إلا هو" (قران ٥٩:٦)، المتعالي المجيد، الكبير "هو الملك القدوس الســلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر .."(قرآن ٢٣:٥٩)، أنـــه الفتـــاح علـــى الدوام وكل ما يعرف عنه "أسماء الله الحسنى"، "بكل اسم هو لـــك، ســـميت بـــه نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثـــرت به فــــي علـــم الغيب عندك"، وقد ترك يسوع لتلاميذه هذه الوصية التـــي تـــروي أن الحيـــاة الأبدية :"أن يعرفوك أنت الآله الحقيقي وحدك" و "قد استودعهم السر المكتـــوم" "منذ الدهور والأجيال" (كولسي ٢٦:١).

- **الأنبياء يرسلهم الله:**

وتبرز من أهم المعاني المشتركة ما بين المســـيحيين والمســلمين هــو الاعتقاد بأن الله لم يترك الإنسانية إلى حالها بل أن الله قد كلــم البشر التـــاريخ "في الأنبياء كلاماً متفرق الأجـــزاء، مختلـــف الأنـــواع" (العــبرانيين ١٠:١)،

فالمسيحيون والمسلمون على السواء يسمون إبراهيم خليل الله، وسيدنا موسى كليم الله حياة الأولى والثاني أسوة ومثالاً أعلى لأيمانهم وطاعتهم وأن ثمة اختلاف جوهري بين المعتقد المسيحي للنبوة والمعتقد الإسلامي كما يذكر، ففي نظر المسيحية أن النبوة الكاملة النهائية قد تحققت في يسوع المسيح غير أنهم يعتقدون أن روح النبوة لا يزال يظهر من جيل إلى جيل، إما المسلمون فيرون في محمد خاتم الأنبياء وأنهم اعترفوا بأن حياة المسيح لها أبعاد خارقة للعادة من حيث ولادته ورفعه إلى السماء ..

- **الله يحيي الأموات ويرضي الأنفس :**

هناك عقائد يشترك فيها المسيحيون والمسلمون -وكذا اليهود- مثل وجود مخلوقات أخرى الملائكة والجن والشياطين، كما أنهم يعتقدون أن لهذه الدنيا نهاية في الزمان كما كانت لها بداية فلن يبقى إلا وجه الله الكريم، وستعود إليه جميع المخلوقات في حشر كبير ونشر عظيم تتحدث عن الكتب المقدسة في صور وأوصاف خيالية متعددة، ويعتقدون ان عيسى سيأتي بمجد عظيم ليدين الأحياء والأموات، وفي يوم القيامة ويوم الحساب (يوم الدين) حيث "تجمع لديه كل الأمم فيميّز بعضهم من بعض " (متى :٢٨)، "يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره "(القران ٩٣: ٦-٧).

وقد قال القديس بولس :"لأنا جميعاً لا بد أن نظهر أمام منبر المسيح لينال كل واحد على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أو شراً" (٢كورنثوس ١:٥).

ويؤكد المسلمون والمسيحيون -واليهود- على السواء أن هناك دار الثواب، هي الجنة، ودار العقاب وهي النار، وإن اختلفوا كثيراً في وصفهما .

□ **الإنسان والعبـادة :**

يحاول المسلمون والمسيحيون – وكذا أهل الأديان جميعاً– كـل حسب مذهبه أن يكونوا خاضعين لمشيئة الله وأحكامه، فيحققوا هكذا ذلك في الإسـلام الحقيقي الذي عاشه سيدنا إبراهيم وابنه الذبيح وسيدنا موسى ورفيقـه الخضـر فمريم العذراء وابنها المسيح والحواريون –الذين شهد الله أنهم "كلهم مسـلمون" "والمسيحيون يقولون كما يؤكد المسلمون أن لا خلاص للإنسـان إلا بالإيمـان، فيقول القديس بولس :"بغير إيمان لا يستطيع أحد أن يرضي الله لأن الذي يدنـو إلى الله يجب عليه أن يؤمن بأنه كائن وأنه يثيب الذيـن يتبعونـه" (عـبرانيين ١١:٦).

وفي القرآن ما يشير صراحة إلى أن الإنسان إنما خلق لعبادة الله، ويقـر المسيحيون والمسلمون أن أعمال الإنسان كلها هي طاعة لله، وأن المثل الأعلـى للمؤمن هو أن يمتثل لشريعة الله أحسن امتثال، وينص القرآن كمـا ذكر علـى كون الإنسان قد خلق ليعبد الله وحده "وما خلقت الجـن والإنـس إلا ليعبـدون" (الذاريات ٥٦).

وأن الرسوم والطقوس في الصلاة والصيام والصدقة وإن اختلفت عنـد المسيحيين والمسلمين إلا أن قصدها واحـد فكلهم يجتهدون لعبـادة الله تعـالى العبادة الحقة "ومقرين باللسان ومصدقين بالقلب، ومخلصين فـي العمـل"، وأن الصلاة والذكر والتأمل والتضرع والاعتكاف كل هذه عـادات قديمـة أصيلـة يشترك فيها المسيحيون والمسلمون –بل نقول أهل الأديان كلهم – مؤكدين هنـا تقديرنا لما أورده الأب الجليل د.جورج قنواتي من الإشـارة الطريفـة والدالـة لكون "الإسلام" هو التعبير الحقيقي عما آمن به سيد الأنبيـاء إبراهيـم وأبنائـه الأنبياء الكرام، مصداقا لما ورد في القرآن (البقرة، ١٣٣،١٣٦ –وآيات متفرقـة في سور شتى)، مما يؤكد غاية الإدراك للرابط الرسالي المشترك بيـن الأديـان

السماوية، وأن مثل هذا الإدراك المعلن لو صح بالتمام بين كل المؤمنين في سائر الأديان لكنا أدركنا غاية التوحيد بالوحدة في الله، ولكننا جميعاً محققون لوعد الله في أن تكون للإيمان أمة هادية إلى صراطه المستقيم .

- **الإنسان واعترافه بحقوق الله :**

إن الإنسان في المسيحية وفي الإسلام هو في قالب العالم، يقول سفر التكوين :"ان الإنسان خلق على صورة الله وعلى شبهه"، ويقول القرآن أن الإنسان بالرغم من أنه من طين فقد نفخ الله فيه من روحه (٢٢: ٨-٩)، ولكي يحقق دعوته في الأرض وأعطاه سمعاً وبصراً وقلباً، وأن الله خلق العالم لكي يكون مستمرا للإنسان من حيث هو خليقة الله - أو خليفته - كما ينوه القرآن الكريم ، وحيث كان الإنسان في الخلق مركز الشرف، ولهذا أمرت الملائكة بأن تسجد له (قرآن ٢:٢٥) .

وقد خلق الإنسان لكي يشهد "ان لا إله إلا الله" لكي يعبد خالقه ويمدحه ويخدمه، وقد وضعه الله وسط العالم لكي يستولي عليه باسمه ويكون ملكه عليها، ولكن يجب عليه أن يستخدمه بحكمه، إذ أنه سيحاسب على كيفية تصرفه، فالأنثروبولوجيا الإسلامية هي مثل الإنثروبولوجيا المسيحية متجهاً نحو الله فلا يفقه الإنسان إلا بنسبته إلى الله.

وهناك حقوق لله غير قابلة للسقوط ولها الأولية، ففي المسيحية كما في الإسلام أن الله هو الذي يخدم قبل كل شيء، والله هو أساس حقوق الإنسان، فللإنسان شخصيته ذات سيادة وحرية، وله الحق أن يعيش ويحقق سبل عيشه وأن يملك، وأن يختار عمله ، وأن يعبر عن آلائه، ولكن الله هو بلا جدال سيد النظام في المجتمع حيث أنه أساس العدل الذي يجب أن يسود "قل أمر ربي بالقسط" (قرآن ٧:٢٧) .

والمؤمنون أخوة (قرآن ٤٩:١٠)، ويذكرنا الإنجيل على استمرار بأن الوصية الثانية شبه الاولى تماماً "أحبب قريبك مثلما تحب نفسك" (متى ٢٢:٣٩)، وأننا في يوم الدينونة سنحاكم على مقدار الصالحات التي قمنا بها .

وأخيرا يعقب الأب دكتور قنواتي على إباحة الشريعة الإسلامية زواج المسيحية من المسلم بالقول : أن ذلك يعني وجود عناصر مسيحية في صميم حياة الأسرة المسلمة وهو من شأنه أن يدخل في حياتها بعض المميزات أو العادات المسيحية، زد على ذلك فإن كثيراً من المسيحين الناضجين قد اعتنقوا الدين الجديد ولم يمكنهم بين ليلة وضحاها عما تعودوا أن يعتقدوه، يحيوه منذ طفولتهم (٧٨)، ونقول إن من الواضح أن انتقال الشخص من أهل الكتاب إلى دائرة الإسلام إنما يرتب لما ذكر تمتعه بكافة الحقوق التي تترتب على المسلم، حيث ينطبق منطوق الحديث النبوي المعروف "لهم ما لنا وعليهم ما علينا ".

وقد قال أبو يوسف في كتاب "الخراج" ناصحاً هارون الرشيد في مسألة أهل الذمة "لا يظلمون ولا يأذون ولا يكلفون فوق طاقتهم" ، ويشار إلى أنه عندما ثارت فئة في جبل لبنان على الوالي العباسي صالح بن علي حاول اعتبار ذلك نقضاً للعهد من جانب جميع الذميين، لكن الإمام الأوزاعي قال له :فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم، وحكم الله تعالى "ألا تزر وازرة وزر أخرى" ، فأنهم ليسوا ببعيد ولكنهم أحرار أهل ذمة (٧٩).

المطران جورج خضر: المسيحية والعربية

يقول المطران جورج خضر في دراسته "الجذر العربي للمسـيحية" :(أن هناك ما يؤهلنا حقاً أن ننعت المسيحية بالعربية، هو أن كل فرقها بلا استثنـــاء منذ ألف سنة ونيف كتبت بالعربية، وكتاب "غراف Graf" بالألمانيـــة (تــاريخ الأدب المسيحي العربـــي) يورد أسماء الكتب المسيحية التي وضعت بالعربيـــة عند الأقباط والسريان والنساطرة والروم والموارنة، وهي ألوف مؤلفة ، ولكنـــها لم تنشر، وإن كشفها جميعاً ليظهر بأن العربية لم تأب أن تتنصر وأن الحضـــارة العربية ستكتب جديدة إذا نشرت هذه الكنـــوز، أكان هذا مـــن حيـــث البلاغـــة والشعر والفلسفة والعلوم، فإذا لم نلجأ إلى مقولة القومية التي لم تكن واردة فـــي أذهان الناس في العصور الغوابر، واكتفينا بالمفهـــوم الحضاري وجب التـــأكيد على أن المسيحية نطقت قبل الإسلام وبعده بالعربية، وأنـــها جملـــة اســـتخدمت جميعها، بمقادير مختلفة اللسان العربي منذ ألف سنة ..

وأن الكثير من أبناء الطوائف الكاثوليكية نادوا بالعروبة منطلقيـــن مـــن ذهنية الأرض والتاريخ، في حين أن الكنيسة التي ينتمون إليها غربتيه"، منوهـــاً إلى أن النصارى كثيراً ما كانوا أفصح العرب وأن العجمة لا تأتي منهم وحدهـــم بالضرورة، وأن عيسويتهم بالذات ذلك اللطف والجـــرح والتوثـــب التـــي هـــي حوافزهم إلى الجمال كله، وإلى الفكر كله، وإلى الدين كله، بحيث يسـتطيعون أن يدخلوا إلى صميم الحضارة التي احتضنتـــها دار الإســـلام فيتفـــهموها بحـــب، ويخلقون فيها ..

أمن الغرابة أن يكون خير كاتب في التمــدن الإســلامي فــي عصــره وبالنسبة للعالم كلهِ المسيحي من لبنان يدعى جرجي زيدان، لم يسلم.. ولــو رأى نفســه عائشاً في إطار التمدن الإسلامي ولم يسبقه أحد في معرفة أوربا، وســاد معرفته ولم تسده .

"ثم لك نكهة المسيح هنا وهناك بدءاً من القرآن نفســه ومــروراً بنــهج البلاغة، والكثير من التصوف، وانطلاقة الخط العربي مسيحية، وكذلك الرســم والعمارة "، منوهاً إلى أن مرد ذلك : أننا تأصلنا في تراب بلادنا وإطلالتنا علــى مستقبلها لخير خدمة نؤديها للمسلمين في نهضة لهم نرجوها صحيحــة طيبــة، صاحية مضاءة بالإيمان الكبير، والعمل الكبير، فإذا كان محجتنا لا بد أن نلتقــي في العمق، وأن نقول للمعذبين في الأرض كلمة واحدة (٨٠).

وهــذه الكلمة نحن نقولها مع المطران خضر أنها "التوحيــد، والوحــدة في الله" غاية ومصير، وهو ما ينبعث من وحدة الفكر الرسالي لمعتقدنا جميعــاً، بمثل ما ينبعــث من وحدة تاريخنا وأرضنا، وثقافتنا التي تمتد إلى عمق الزمــن كله.

ابن تيمية: نبذ من دلائل التوافق

في معرض تصدي ابن تيمية لموضوعه التوحيد الإلهي وما يتصل بها من عقيدة الرسل، ينوه إلى أن المعول خارج نطاق الاجتهاد الفلسفي ومفارقاته هو اعتماد النص الوارد فعلا على ألسن الرسل، وأن من آمن بما جاءت به الرسل وقال ما قالوه من غير تحريف للفظه ولا معناه، فهذا لا إنكار عليه بخلاف من ابتدع أقوالا لم تقلها الرسل، بل هي تخالف ما قالوه، إما لفظا أو معنى، فإن هذا ما يستحق الإنكار عليه باتفاق الطوائف، وأن أصل دين المسلمين أنهم يصفون الله بما وصف به نفسه في كتبه، وبما وصفته به رسله، بل ويثبتون له تعالى ما أثبته لنفسه وينفون عنه ما نفاه عن نفسه ويبتغون في ذلك أقوال رسله ويجتنبون ما خالف أقوال الرسل.

مشيرا إلى أن جميع النبوءات المتيقنة والكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل وسائر نبوءات الأنبياء لم تخص السيد المسيح بشيء يقتضي اختصاصه باتحاد اللاهوت به وحلوله فيه، بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد (ص) في القول: {إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه} (النساء: ١٧١)، وأن الإله الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل في التوراة والإنجيل والقرآن، والذي أرسل موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم وسلامه .

وإذا أعرضنا صفحا عن تلك المناقشات التي أوردها ابن تيمية بصدد الموضوع المذكور، فإننا نجده قد أشار إلى جملة من جوانب التوافق ما بين

مضامين الإنجيل والتوراة والقرآن، من بينها أن ما ورد في قول السيد المسيح (ستشرق الشمس على الأرض ويهتدي بها الضالون ويضل عنها بنو إسرائيل)، هو يناسب قوله في التوراة (جاء الرب من طور سيناء وأشرق من ساعير واستعلن من جبال قاران)، فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سيناء هو ظهور نوره بموسى، واستعلانه من جبال قاران هو ظهور نوره بمحمد، وأن في الأماكن الثلاثة التي أقسم بها القرآن بقوله: {والتين والزيتون* وطور سينين* وهذا البلد الأمين} (التين: ١-٣) .

أن بلد التين والزيتون هي الأرض المقدسة التي بعث منها السيد المسيح وكان بها أنبياء بني إسرائيل، وإسراء محمد (ص)، وطورا سنين، وهذا البلد الأمين هو بلد مكة الذي بعث الله منها محمداً وأنزل عليه القرآن (٨٠) .

ونقول بعد دلالات الأحداث والأحكام في توافقها في المسار الرسالي للأديان .. أن حقائق الكون والحياة قد أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك أن الفكر السماوي - توحيدياً كان أم غير توحيدي- قد جسّد السيادة الأعم في ربوع الأرض، وإن الأديان السماوية من بينها قد حملت للإنسانية بشائر التوحيد، وحدة في النظرة الكونية، ووحدة الإنسانية .

المبحث السابع

نبوءات الأحداث
دلالات للتوافق الرسالي

نبوءات الأحداث

دلالات التوافق الرسالي

نبوءات الأحداث دلالات التوافق الرسالي

وأنت تقرأ هذه العبارة أو تلك، وهي تتردد على لسان هذا النبي أو ذاك، فإنك لتقرأ جملة مفيدة واحدة تتردد على ألسنتهم جميعاً.

وأنت تطالع هذه الحادثة أو تلك من حوادث السيرة الرسالية فإنك لتجد على بعد الزمن بينها تثبيتاً لحقائق التعاقب الدوري في التاريخ كما أسماها المؤرخ الإيطالي "فيكو"، وأجراها المؤرخ "ابن خلدون" قبله بمسميات أخرى..

"سلسلة من الأحداث والرؤى تتجارى في روافد متصلة بقناة السماء، يوم كانت السماء تغذي الأرض عن طريق رسلها بزاد الروح على دفعات تكاملت على إثرها الوظيفة الرسالية التي امتازت بوحدة الموقف، ووحدة الكلمة.

ولم يكن التصديق بوحي الرسل وما يصدر عن ذلك الوحي بالأمر الهيّن اليسير، كما لم يكن مثل ذلك التوافق ما بين رسالة وأخرى، محض صدفة، أو توارد خواطر، أو قراءات في فكر بعضها البعض، بل كانت تجسيداً لحكمة البعث الرسالي، ووحدة مصدره.. وإن تصديق الأحكام الحوادث كمثل تصديق الرسل كان من دلالات الوثوق التأريخي بالرسالات الدينية، وهو من فيض وثوق الخالق بيقين مخلوقات ربه.

وإن رؤى الرسل في رحاب الملكوت السماوي حالة يتجسد منها بيان التكليف الإلهي في وثيقة يبلغها الرسول السماوي إلى الرسول البشري الذي يتم اختياره لمهمة الإبلاغ الرسالي من بين من تتوافر فيهم القدرة على أداء هذه

الوظيفة الشاقة التي يتطلب المهارة الفائقة في تمكين الحكم الإلهي وقراره في أن يأخذ موقعه في نفوس البشر في دائرة الابلاغ الرسالي.

وأنه بقدر ما يصعب التصديق بالرسل، فإنه يصعب بالمقابل التصديق بنبوءاتهم وما يحدثون به والتي تعد في أجزاء منها ضربا من الخوارق والمعجزات، وأنه لكي تدرك الحقائق الرسالية فإنه لا بد من إدراك شاهد الأعجاز الرسالي والذي يرتب اليقين بها يقينا مقابلا بكل ما تمثله من قيم واعتبارات روحية، كأن من جملتها الإيمان بالغيب، والذي يعد جزءا من مراتب اليقين بالدين، فلو لم يؤمن الانسان بالدين كله ما كان له أن يؤمن بالغيب قطعا، فالأيمان بالكل هكذا يرتب حالة الأيمان بالجزء.

وهناك من الرؤى والمشاهد في حياة الرسل والأنبياء ما يصعب إدراكها أو تصديقها في الحال، فقد تنبأ (أرميا) – أحد أنبياء اليهود الرئيسين (٦٢٧ – ٥٨٠ ق. م) بسقوط أورشليم، وتدمير هيكل سليمان فأرعب ذلك قومه وقتذاك فأخذ إلى مصر ورجم هناك رميا بالحجارة لتنبؤاته الكئيبة والتي تحققت بالفعل، وتنبأ (أشعيا) بظهور يوحنا المعدان (يحيى) وهو يبشر في برية اليهودية:

"صوت صارخ من البرية.

هيئوا طريق الرب.

واجعلوا سبيله مستقيمة" (متن ٣ : ٣)

وتنبأ بولادة السيد المسيح: "ها هي العذراء تجعل وتلد ولدا"، وقد كان السيد المسيح يستشهد بالكثير من أقواله، في وقت يذكر الكتاب المقدس أن المجوس كانوا يبشرون بولادة السيد المسيح وما يكون من أمر دعوته، حيث أنه لما ولد في بيت لحم على عهد الملك هيرودس، جاء إلى أورشليم مجوس من المشرق

فقالوا: "أين المولود، ملك اليهود، رأينا نجمه في المشرق فجئنا لنسجد له"، وسمع الملك هيرودس فاضطرب هو وكل أورشليم، وجمع هيرودس رؤساء الكهنة ومعلمي الشعب، وسألهم أين يولد المسيح ؟ فأجابوا في بيت لحم، ثم دعا المجوس سرا وتحقق فيهم متى ظهر النجم، كم أرسلهم إلى بيت لحم وقال لهم: "اذهبوا وابحثوا جيدا) عن الطفل وإذا وجدتموه فأخبروني حتى أذهب أنا وأسجد له !"، فلما سمعوا كلامه انصرفوا وبينما هم في الطريق إذا النجم الذي رأوه في الشرق يتقدمهم حتى بلغ المكان الذي فيه الطفل فوقف فوقه، فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما.. ودخلوا البيت فوجدوا الطفل مع أمه مريم، فركعوا له وسجدوا، ثم فتحوا أكياسهم وأهدوا إليه ذهبا ونحورا، وأنذرهم الله في الحلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس، فأخذوا طريقا آخر إلى بلادهم.." (متن ٢: ٢ - ١٢).

وقصة ولادة السيد المسيح تماثل في ظروفها ولادة النبي موسى عليه السلام فقد كان فرعون مصر يبحث عن كل وليد لنبي إسرائيل إذ كان يدخل في روعة ما كان يدخل في روع هيرودس، والطغاة هكذا كانوا يخشون من ولادة الأنبياء في أزمانهم، فيما يقضي الله أن يصونهم من الكيد لما يبلغوا رسالاته، ويتوافق الكتاب المقدس مع القرآن الكريم في إيراد الحوادث الجارية لموسى من ابتداء ولادته، واحتضان آل فرعون له من دون أن يدركوا ما يكون من شأنه معهم، ثم ما يكون من أمره مع شعيب ثم مع فرعون في تلك الملحمة التي كان لها شأن في التاريخ والتي يورد القرآن تفاصيلها في سورة القصص بشكل خاص على نحو ما يرد في إصحاحات سفر الخروج.

وكانت النبوءة اللاحقة بولادة خاتم الرسل محمد (ص)، إذا تنبأ "بحيرا الراهب" بما سيكون من شأن محمد (ص) يوم وفد على بلاد الشام وهو غلام مع عمه أبي طالب في تجارة إلى خطورة شأنه وما يكون من أمره موصيا إياه

بالمحافظة عليه، فيما يكون بحيرا بعدئذ من بين الثمانية من رهبان الشام الذين وفدوا على النبي (ص) بعد رجوع المهاجرين من الحبشة ليستمعوا إليه ويعلنوا إسلامهم بين يديه، ويصدق "ورقة بن نوفل الغري" – الرجل الذي تنصر وكان يكتب الكتاب العبراني، ويقرأ الإنجيل بالعبرانية – أمر النبوة يستمع من محمد (ص) قصة الوحي قائلا:

"هنا الناموس الذي كان يتنزل على موسى، ياليتني كنت فيها جزعا، يا ليتني كنت حيا، إذ يخرجك قومك، " فقال الرسول (ص): "أو مخرجي هم ؟" قال: نعم، لم يأت أحد بمثل ما جئت إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا"، ثم لن ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي فترة. (٨١).

وهكذا فقد كانت النبوءات في الرسالات السماوية من أوثق الشهادات في مجرى الأحداث في التاريخ، فيما كان لبعض النبوءات أو الرؤى الخاصة بمريدي أو منشئ البعض من الأديان غير السماوية – حصة من ذلك وشأن يضارع في نتائجه عند بعض الشعوب والأمم ما كان في الأمم التي انبعثت فيها الأديان السماوية.

فالهندوسية والمسيحية قد أخذت حصة وافرة من معتقدات الشعب الهندي وتوجهاته الروحية ما يضارع حصة التأثير للإسلام في الجزء الذي بلغته عقيدته من القارة الهندية، وقد نشأت المسيحية ما بين الديانتين الهندوسية والإسلامية لتشق طريقها وسطا بين الحالتين، فيما أعلن "ناناك Nanak" أنه لبى نداء إلهيا علويا ليكون المبعوث للمسلمين والهندوس ولكل الطبقات الاجتماعية، وكانت عقيدته توفيقية في ما أعلن من أنه لم يلمس الفارق بين "الله" عند المسلمين، "وفيشنو Vishnu" الإله الحافظ عند الهندوس.

وعنده أن الإله واحد، وهو الذي يبني الروح ويحيط علمه بالملايين، وليس له أعين، وهو الخالق لملايين الأشكال والأجسام، والغالب لكل ساحر وشيطان، وأن ما من قلب منير إلا والنور الذي حل فيه من مصدر واحد هو الإله الذي هو مفارق للمخلوقات كافة، وبذلك فإن أفكار "ناناك" قد جاءت كما تشير "موسوعة الأديان في العالم – متأثرة بمؤثرات إسلامية، ومن بين هذه الازدواجية بنيت ديانة السيخ مع الغورو أو المعلم ناناك في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد. (٨٢)

وهكذا فإن هذه الديانة التي ولدتها نبوءة صاحبها قد شقت طريقها لتستقطب الملايين من شعب رسخت فيه عقائد سابقة لهذه العقيدة المشتقة.

وكان من شأن نبوءة زرادشت بأن "أهورامزدا" الإله الحكيم قد كلفه بالدعوة له في الأرض – إن تنشأ عقيدة موحدة في ساحة الشرك من بلاد فارس آنذاك، ما كان مقدرا لها أن تمتد على طول تلك الساحة حتى بعد أن جاوزت محنتها مع كهان الملك كاشتاسب، حيث انتصب أمامها المد الإسلامي الجارف الذي حجم دورها لتغلق على نفسها في بيئتها المجوسية، ولتقفل باب الانتماء لديانتها، وهو ما صرح به زعيمها الديني الروحي الإيراني "رستم شهزادي" بقوله:

"إننا لسنا كالأديان الأخرى نقبل انتماء الآخرين إلى ديانتنا، فالديانة الزرادشتيه لا تقبل بانضمام أي فرد آخر إليها ما لم يكن من أبوين مجوسيين وهذه القاعدة نعمل بها وعمل بها زعماؤنا الدينيون منذ الفتح الإسلامي لإيران قبل أكثر من ألف وثلثمائة عام" (٨٣).

ومن بعض النبوءات ما كانت مستعصية على الإدراك والتصديق في وقتها، كمثل ما حصل من النبوءات لبعض أنبياء بني إسرائيل كما سبق ذكره،

وما كان من نبوءة الإسراء والمعراج في الإسلام، وفيها جميعا ما يؤشر حالة مشتركة من خاصة الأعجاز واختراق الغيب ما تنفرد به الديانات السماوية والتي ترقى النبوءات في بعضها إلى مستوى الحضور في عالم الغيب بكامل الهيئة كما في الإسراء النبوي، والتي لم يكن لها خصوصية إعجاز مقصودة في سياق السيرة الرسالية التي امتازت بقدر من الواقعية، حيث أنه في خضم مسيرة الدعوة الإسلامية وزهو أيامها لم يسمح النبي محمد (ص) بأن تكون له هالة قدسية وأن يتمثله قومه بصورة من يأتي بالمعجزات أو يستجيب لدعوة من هذا القبيل، بل ليفهمه قومه كبشر سوي اختصه الله واصطفاه من بينهم ليبلغ رسالته في الوحدانية:

{قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا} . (الكهف: ١١٠).

ويرد في سياق الذكر الحكيم ما يعزز هذه القناعة لدى العرب عن نبيهم:

{أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين} . (يونس: ٢).

"ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك".

{قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين}. (الأحقاف: ٩).

- وقيل في نزول هذه الآية أنه: كان من القدم من يقترحون على محمد (ص) آيات عجيبة، ويسألونه عن المغيبات فأمر (ص) بأن يقول لهم : ما كنت بدعا من الرسل قادرا على ما لم يقدروا عليه حتى آتيكم بكل ما تسألون عنه

من الغيوب ، فإن من قبلي من الرسل ما كانوا يأتون لا ما آتيهم الله تعـالى من الآيات ولا يخبرونهم إلا بما أوحي إليهم، وما أدري ما يفعل بي ولا بكم مما يستقبل من الزمان من أفعاله تعالى وما يقدر لنا من قضايا. (٨٤).

والواقع أن مكابـرة العرب مع محمد (ص) لا ترقى إلى مكابرة اليـهود مع جملة أنبيائهم، أو مكابرتهم مع السيد المسيح والتي اقتضت تحقق المعجـزات الخارقة، لما عرف من مكانته (ص) بينهم، واحتكامـهم للمنطـق العقلـي حـد اقتناعهم بالمبررات المنطقية التي أوردها القرآن، فيما حقق الأعجـاز اللغـوي للقرآن الغاية في يقينهم حيث صدقوا الرسالة وعدها الحـق فـي بـذل سـخي وتضحيات جسيمة في المواقف الحاسمة مع قوى الشرك، ففي معركة بدر قـام المقداد بن عمر ليقول للرسول (ص) وقد هال البعـض وطـأة الحـرب علـى المسلمين:

"يا رسـول الله امض لما أمرك الله فنحن معك، والله لا نقول كما قـالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون)، ولكن اذهـب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى بـرك الغماد (الحبشة) لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه". (٨٥)، وقـال آخرون مـن مثل قوله.

ورغم ما يستدل من واقعة الإسراء من نبوءات الغيب فإنها في مجمـل وقائعها المرويـة تعد مشهدا خاصا بالرسول محمد (ص)، فيما تكـون رمـزا لملتقى رسالي في ملكوت السماء، ولم يكن لها فـي سـياق السـيرة الرسـالية خصوصية إعجاز مقصودة كما نرى، إذن اكتفى الرسول (ص) بالأخبار عمـا كان من أمرها، وأن فيها مما ذكر ما يوافق مشهد الرسل في علاقتهم بالله تعـالى في كون ذلك لا يتـم إلا وحيا أو من وراء حجاب، وأن لا تحصـل رؤيتـه

تعالى إلا بمثل الصورة التي تمت لنبي الله موسى عليه السلام، أو رؤى النبي محمد (ص) في منامه.

{وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ..}. (الشورى ٥١ – ٥٢).

في ما يكون من الممكن لقاء الأنبياء في أجسادهم أو أرواحهم، ولقاؤهم الرسل من الملائكة كفصيل روحي وملاك سماوي، وأن المشاهد المروية في واقعة الإسراء من لقاء الرسول محمد (ص) بصفة من الأنبياء يقوده فيها الملك جبرائيل – يوافق ما يرد في نبوءات البعض من أنبياء بني إسرائيل عن بعضهم في أزمان متباعدة، ومشاهد حضور الملائكة عند الأنبياء كإبراهيم، ولوط، وزكريا، والسيدة مريم العذراء، وما كان من بشارة السيد المسيح بما كتب أشعيا، وبشيء يوحنا المعمدان.

وما يذكر الكتاب المقدس من: "إقامة الروح القدس أربعين يوما يجربه الشيطان.. وكانت تخدمه الملائكة" (مرقس ١: ٣).. وكل ذلك إذ يصدق صدق حالة من حالات الأعلام الرسالي بالتئام المحفل النبوي في رحاب السماء، وقد أعمل قوم محمد (ص) عقولهم للتحقق من صحة ما حدث فيها، أيكون ذلك ضربا من الإيفاد الروحي، أو الإيفاد الجسدي في مجال الكون ما كانت الناس تستغربه في ما لم تستغرب اليوم إيفاد الأجساد في غياهب السماء بالمقطورات الصناعية.

فيوم أذاع النبي محمد (ص) نبأ إسرائه من مكة إلى بيت المقدس استغرب الكثيرون أن يحصل ذلك بمثل ما استغربوا أن يلتقي الرسول

بالماضين من رسل الله في محفل من محافل السماء، وأكثر ما أذهلهم من الأمران الذي أنبأ بمثل ذلك من كانوا يعرفون عنه صدقة وأمانته، فالذي آمن بيقين بمحمد صدق بمثل ما صدق برسالته، وآمن بأن بمقدور الإرادة الإلهية أن تصنع مثل ذلك الإنجاز في أي من السماء أو الأرض.

والذين لم يؤمنوا أضافوا غرابة هذه الواقعة إلى جملة شكوكهم بالدعوة الإسلامية، ومن بين هؤلاء من رام الدليل ليوقف بصحة ما أنبأ به محمد (ص) من إسرائه لبيت المقدس في ليلة واحدة، وعدم تصديقهم لما ذكره عن الشجرة الملعونة – وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم – في جملة من مواقف النظر الواقعي الموضوعي لمجتمع الرسالة وقتذاك، والذي لم يحتمل تصديق ما لم تدركه عقولهم أو يقوم عليه الدليل.

إذ قالوا عن تلك الشجرة أن النار تحرق الشجر فكيف تنبته؟! وعن مدة الإسراء في الرواح والغدو – ما ذكره ابن هشام من حديث الحسن – في قول أكثر الناس: هذا هو الأمر البين – العجيب المتكرر: والله إن العير لتطرد شهرا من مكة إلى الشام مدبرة، وشهرا مقبلة، أفيذهب محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة، فارتد كثير ممن أسلم وذهب الناس إلى أبي بكر (رضي الله عنه) فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة، فقال لهم أبو بكر: "والله لئن كان قد قاله لقد صدق، فما يعجبكم من ذلك، فوالله أنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه"، ثم أقبل حتى إنتهى إلى رسول الله (ص) فقال: يا نبي الله أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة، قال: نعم، قال: يا نبي الله فصفه لي، فإني قد جئته" فجعل رسول الله (ص) يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت أشهد

أنك رسول الله، حتى إذا انتهى قال رسول الله (ص) لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذ سماه الصديق. (٨٦).

- وبطبيعة الحال فإن ما آل إليه التصديق بواقعة الإسراء قد آل إلى التصديق بجملة ما ورد فيها.

وتفاصيل المعراج النبوي وبضمنها تحديدا لقاء الرسول (ص) بالكثير من الأنبياء وعلى وجه الخصوص منهم – موسى وعيسى – عليهم السلام، وما جرى بينهم من حديث، وما استتبع ذلك من وصف الرسول محمد (ص) لهيئة الرسولين الكريمين – تعد دالة أخرى من دلالات التواصل الرسالي بين الأديان السماوية.

وقد أثيرت المشابهات الوثيقة ما بين ما ورد في "الكوميديا الإلهية" لدانتي، وما ورد في الكتب الإسلامية عن المعراج، ومنها ما في "رسالة الغفران" للمعري، وبعض كتب محي الدين ابن عربي.

ويورد الأستاذ عبد الرحمن بدوي تفصيلات وافية عن ذلك من أخصها ما أعلنه المستشرق الاسباني الشهير "أسين بلاثيوس" في خطابه في الأكاديمية الملكية الاسبانية (جلسة ٢٦ يناير / كانون ١ – ١٩١٦) بأن: "دانته" في الكوميديا الإلهية قد تأثر بالإسلام تأثرا عميقا واسع المدى يتغلغل في تفاصيل تصويره للجحيم والجنة، وأن في ذات المشابهات من الدقة والتفصيل ما يدل على أن التشابه لم يكن عرضيا ونوادر خواطر، بل كان من تأثر مباشر بالتصويرات الإسلامية للآخرة، وقد راح آسين يعدد نقاط التشابه استنادا إلى المصادر الإسلامية مقارنا إياها بما ورد في الكوميديا الإلهية، وقام بالرد على معارضيه جميعا بالطبقة الثامنة من كتابه التي ظهرت في مدريد سنة ١٩٤٣ بعنوان: "الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية" تلاها: "تاريخ ونقد

لمساجلات" في (٦٠٩ صفحة من القطع الكبير)، أقام بعده الدليل الحاسم سنة ١٩٤٩ بفضل باحثين عمل كل منهما مستقلا عن الآخر، أحدهما إيطالي هو (إيريكو إتشرولي) الذي نشر سنة ١٩٤٩ الترجمتين اللاتينية والفرنسية لكتاب ابن عربي "المعراج".

وكان إبراهام الحكيم قد ترجمه من العربية إلى اللغة الإسبانية القشتالية من أجل الفونسو العاشر، وعن هذه الترجمة نقله (بونومنتو راداسينا) إلى اللغتين اللاتينية والفرنسية، ثم أضاف إلى الترجمتين الشواهد الدالة لمعرفة وانتشار كتاب المعراج في الآداب الأوربية منذ القرن الخامس عشر، في وقت كانت المعلومات عن معراج الرسول محمد (ص) قد انتشرت في إسبانيا، فيما ظهر كتابان، الأول هو "تاريخ العرب Historia Orvum" تأليف "روديجو خيمنيث" الذي كان أسقفا لطليطلة (ت ١٢٤٧)، والثاني هو (التاريخ العام Cnonica General" الذي ألف بأمر من الفونس العاشر الحكيم (١٢٢١ – ١٢٤٨ م)، ويذكر أن دانته قد إستفاد من صحبة الإدلاء الثلاثة (فرحيل، وما يتلده، وبياتريش) من أجل إثارة استطرادات غريبة تتناول أسئلة في التوحيد والفلك وشكوكا تثأر عليها الدليل مما جعل تشابه هنا بين كتاب "المعراج" و "الكوميديا الإلهية" تشابه واضح كل الوضوح.. وأن المعراج الذي نوه به دانته هو بمثابة سلم يبدأ من عتبة المسجد الأقصى وينتهي عند السماء الأولى في الجنة، وكانت تحيط به الملائكة تحرسه وعليه صعد النبي محمد (ص) في صحبة جبريل وكل الملائكة، وهذا المعراج يشبه المعراج الذي وجده دانتي في سماء راحل، وهو سلم يمتد حتى يبلغ أفلاك الأمبريو.

وصحيح أن المعراجين كما يشار يرجعان إلى سلم يعقوب الوارد ذكره في سفر التكوين (الاصحاح٣٩: ١٢)، ولكن التشابه في التفاصيل الواردة في كتاب دانته يدعو إلى الظن بأن دانته إنما استلم معراج كتاب المعراج لا مجرد

سلم يعقوب، ذلك أنه استعمل هذا السلم للصعود إلى السماء العليا في الجنة بقيادة جبريل "وأخذ جبريل بيدي ورفعني فوق التراب ووضعني على الدرجة الأولى من المعراج وقال لي: اصعد يا محمد، فصعدت.." (٨٧).

ومن جملة ما يصدق من حوادث الإسراء، بل وأهم ما يعنينا هنا، ملتقى الأنبياء في المحفل السماوي، ففي ذلك شاهد من شواهد الاتفاق في المقاصد الرسالية في جملتها، وأن ما نقل عنها من أحاديث الرسول (ص) يدخل في سياق الوثائق التاريخية التي تعين في استلهام آفاق ومعالم التوحيد الديني من جهة، ومن جهة أخرى فإن ما وصف به الرسول محمد (ص) هيئات الأنبياء وبالأخص منهم موسى وعيسى عليهما السلام ما يعين على تمثل ما اتصفوا به من الخصائص الشخصية التي يندر أن يصف بها شخص آخر في زمن سابق دون أن تتحقق رؤيته له باليقين.

والرسول محمد (ص) لا يروي ما كان من حديثه مع جمع من أنبياء الله السابقين فحسب، بل إنه يذهب إلى وصف أشكالهم، وفي روايته عن شخوصهم فإنه يقيم الدليل – الذي تتوافق معه دلائل التماثل والانسجام في الحوادث والأحكام – بأن ثمة علة مشتركة لبعث الأنبياء والرسل، فالأنبياء "اخوان علات" – كما وصف (ص)، ينتظمون في مسلك رسالي ابتدأت حلقاته من وأول شوط من أشواط البعث الرسالي، وانتهت إلى هذه الصورة التي تقيم كل يوم دليلا على حيويتها وانبعاثها المتجدد في وحدة المسار،وأن لقاء الرسول محمد (ص) بالأنبياء على نحو منفصل في كل سماء من السموات السبع يقيم الدليل لتمثل صدق ما أنبأت به الكتب السماوية من تعدد هذه الكيانات في الوجود كما خلقها الله يوما بعد يوم آخر – كما مر ذكره –.

والذين التقى بهم الرسول محمد (ص) يجسدون الواقع الديني الأكثر تمثلا للحقيقة الدينية في هذا العالم، بل هم الذين يمثلون مصادر الانتماء الإنساني والروحي في حياة الإنسان الراهنة عموما، وقد رتب الملكوت الإلهي لقاءات الإسراء على وفق جدول زمني انتقل فيه الرسول محمد (ص) من أسفل الهرم السماوي إلى أعلاه ليلتقي في السماء الأولى – سماء الأرض أبو البشر (آدم) عليه السلام حيث قدمه إليه المبعوث الإلهي للأنبياء "جرائيل، ليستهل منهاج الرحلة السماوية بترحيب آدم به والدعاء له بالخير، ثم ليرتقي به صعودا إلى السماوات اللاحقة ليلتقي في كل منها بنبي من الأنبياء، وكانت مراسيم اللقاء التالية:

- في السماء الثانية: كان اللقاء مشتركا مع ابن الخالة عيسى ابن مريم ومعاصره يحيى بن زكريا.
- وفي السماء الثالثة: كان اللقاء بالنبي يوسف بن يعقوب.
- في السماء الرابعة: كان اللقاء بالنبي إدريس.
- في السماء الخامسة: تم اللقاء بهرون بن عمران.
- في السماء السادسة: كان اللقاء بالنبي موسى بن عمران.
- في السماء السابعة: كان اللقاء بابي الأنبياء إبراهيم الذي أحتل موقعه في القمة، وقد كان مسندا ظهره إلى البيت المعمور (٨٨).

ومن بين كل الأنبياء كان للنبي محمد (ص) حديث خاص مع النبي موسى عليه السلام حول ما فرض الله على أمته من الصلاة، أفاد فيها موسى محمدا صلوات الله عليهم بما بلي به بني إسرائيل وخبرته فيهم من ذلك حيث أشار عليه بأن يسأل الله أن يخفف من مقدارها فرض من الصلوات الخمسين

على أمته على قدر ما يطيقون وكان له (ص) صعود ونزول في أمر ذلك ما بين موسى والموقع الإلهي حتى استجاب الله تعالى لطلب التخفيف لتكون عدة الصلوات على ما هي عليه الآن.

وأعظم ما يكون من ثمار الإسراء النبوي ما كان من وصف الأنبياء في هيئاتهم وصفا جديرا بأهليتهم لذلك الدور السامي الذي مثلوا أدواره في ما يروي من قصصهم أدق الأحداث وأبلغها دلالة، فقد ذكر عن آدم: أن الله خلقه وطوله ستون ذراعا ثم قال: اذهب وسلم على أولئك الملائكة فاستمع ما يحيونك، تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا السلام عليك ورحمة الله، فزادوا "ورحمة الله". وفي ذلك فيما نرى جانب مما تعلم آدم من الملائكة لقاء بأمر الله بأسماء ما لم يعلموا، ليكون في ذلك الدلالة في ان المعرفة تقوم على التعلم والتعليم.

وعن صفة سيدنا إبراهيم ذكر أنه: "رجل طويل لا أكاد أرى رأسه" وقد شبهه بنفسه، ومما ذكر من سيرته عليه السلام:

"إن إبراهيم لم يكذب إلا ثلاث كذبات، اثنتين في ذات الله قوله: (إني سقيم)، والثانية قوله: (بل فعله كبيرهم هذا)، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة، وكانت من أحسن الناس، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيري وغيرك."

وقد نوه الكتاب المقدس بهذه الواقعة في سفر الخروج، وأن التاريخ الرسالي قد شهد مثل هذه الحالات من الإنكار المبرر، حيث للضرورة أحكامها، فإن بطرس الرسول قد فعل ذلك، فيوم قبضوا على السيد المسيح ودخلوا به إلى دار رئيس الكهنة وكان بطرس يتبعه عن بعد، أنكر أنه يعرفه، إذ رأته خادمة

عند النار التي أوقدها الحرس في ساحة الدار فتغرست فيه وقالت: "وهذا الرجل كان مع يسوع" فأنكر وقال: "أنا لا أعرفه يا امرأة"، وبعد قليل رآه رجل فقال: "وأنت منهم" فأجابه بطرس: "كلا يا رجل"، ومضى نحو ساعة، فقال أحدهم: "وهذا كان معه، لأنه من الجليل"، فأجابه بطرس: يا رجل، لا أفهم ما تقول"، وبينما هو يتكلم صاح الديك، فانتبه بطرس، فتذكر قول السيد المسيح:

"قبل أن يصيح الديك اليوم، تنكرني ثلاث مرات"، فخرج وبكى بكاء مرا". (لوقا ٢٢: ٥٤ – ٦٢).

وكان مثل هذا الأمر مع عمار بن ياسر من السابقين للإسلام فقد عذب عذابا مرا، وقيل له: "لا نتركك حتى تسب محمدا وتقول باللات والعزى خيرا، ففعل مضطرا فتركوه. فأتى النبي (ص) وهو يبكي لما فعل، فنزلت فيه وفيمن فتنتهم قريش فثبتوا على الأيمان:

"إلا من آمن وقلبه مطمئن بالإيمان" (النحل ١٠٦) (٨٩).

.. وكان من ضمن من ذكر الرسول محمد (ص) النبي يونس بن متي عليه السلام في قوله:

"لا ينبغي لعبد أن يقول إني خير من يونس بن متي، ونسبة إلى أبيه"، وأنبأ عن مشاهدته:

"كأني انظر إلى يونس على ناقة حمراء عليه جبة صرف خطام ناقته ليف خلبة مارا بهذا الوادي ملبيا..".

وذكر عن داود عليه السلام مأثرته في القرآن والعمل:

"خفف على داود عليه السلام القرآن فكان يأمر بدوابه فتسرج فيقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه ولا يأكل إلا من عمل يده".

إما رفيقي دربه في المسيـرة الرسالية (موسى وعيسى) فقـد خصـهما بوافر من الذكر، مستحضرا فيهما مشاهدا وافرة، إذ كان لموسى معه في لقـاء الإسراء حديث طويل – كما مر – وقد وصف هيئة بقوله (ص):

"كان أجعد أدم على جمل أحمر محطـوم بخلبة كأني أنظر إليه انحـدر إلى الوادي"، و "أنه كان طوال كأنه من رجال شنوءه" و "أنه كان رجلا جيـدا.. فكان لا يرى متجردا" وذكر من أمر مشاهدته في الوادي الأزرق أثناء الإسراء:

"كأني انظر إلى موسى صلى الله عليه وسلم فذكرني في لونـه وشـعره شيئا لم يحفظه داود واضعا إصبعه في أذنه له جؤار إلى الله بالتلبية مارا بـهذا الوادي، قال ثم سرنا حتى أتينا على ثنية، فقال: أي ثنية هذه قـالوا أهرشـى أو لفت".

وذكر (ص) من قصة موسى مع الخضر عليهما السلام: "أن موسى قـام خطيبا في بني إسرائيل، فسئل أي النـاس أعلم ؟ فقال: أنا أعلم قال : فغضـب الله عليه ولم يرد العلم إليه فأوحى إليه أن عبدا من عبادي بمجمع البحرين هـو أعلم منك، قال موسى: أي رب كيـف لي به، فقيل له: أحمل حوتا فـي مكتـل (قفة) فحيث تفقد الحوت فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاة، وهو يوشع بن نـون، يمشيان حتى أتيا الصخـرة، فرقد موسى وفتاه، فاضطرب الحوت في المكتـل حتى خرج من المكتل فسقط في البحر، فقال: فأمسك الله عنه جرية الماء، حتـى كان مثل الطاق، فكان للحوت سردا، وكان لموسى ولفتاه عجبا، فانطلقـا بقيـة يومهما وليلتهما ونسي موسى أن يخبره.

فلمـا أصبح موسى عليه السلام قال لفتاه: (آتنا غداءنا لقد لقينـا مـن سفرنا هذا نصبا)، قال، ولم ينصب حتى جاوز المكان الذي أمـر بـه.. ليأتيـا الصخرة فرأى رجلا نائما، مسجى عليه بثوب، فسلم عليه موسـى، فقـال لـه

الخضر: إني بأرضك السلام ؟ قال : أنا موسى ، قال: موسى بني إسرائيل ؟ قال: نعم، قال: إنك على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه، فقال له موسى عليه السلام: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا،"قال إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا..) – إلى آخر قصة مع الخضر كما أوردتها الآيات.

.. وأنبأ الرسول (ص) بعدئذ عما كان من قصة موسى مع ملك الموت، وعن قبره عليه السلام، قائلا:

"والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر".

ونوه (ص) بخصوصية الدور السياسي لأنبياء بني إسرائيل بقوله: "كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه بني.." (٩٠).

وقد نقل لنا "البيهقي" في "دلائل النبوة" نبذا من النصوص العبرية من الاصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية وهي تبلغ عن نبوة الرسول محمد (ص):

""ويومر يهووه مسينائي به وزارع مسعير لا موهنفع مهرباران واتسامر يوث قواش قيميفوايش داث لامو" وترجمتها:

"إن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطح في جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس، وخرج من يمينه نار شريفة لهم".

وقول موسى الكلم:"إن نبيا مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من اخوتكم أبناء إبراهيم" (٩١)، ومن الحق أن يكون ذلك فإنه كما أنبأ الرسول محمد (ص) عن النبي موسى عليه السلام، فإنه كذلك ينبئ عن لاحقه كمثل ما أنبأ الكثير من أنبياء بني إسرائيل عما يكون من أمر يوحنا والسيد المسيح عليهم السلام، ولكنه إلى جانب ذلك فإن من مواقف بني إسرائيل بعدئذ ما لا يتوافق مع هذا

المنهج الرسالي، مع ما يبدو من مواقف الرسـول محمد (ص) تجاه اليهود مـا ينبئ عن الرغبة في التعايش معهم فيما لم يشاؤوا هم أن يكون ذلك.

ولم يعرف التاريخ الرسالي كمثل صراع اليهود مع الأنبيـاء منهم ومـن غيرهم، ولم تكن منهم إلا القلة التي تداعت إلى مواطن التوافق مدركة لما فـي نصوص الشريعة من ذلك الأيماء كمثل ما أدركه كعب الأحبار، وعبـد الله بـن سلام، والقليل من بعدهم، على خلاف المسيحيين الذي توافقوا مـع بلاغـات التوفيق الرسالي على تفاوت المواقف التي تراوحت بين إعلان الانضواء تحـت لواء الرسالة الجديدة، أو مساندتها، أو الوقوف على الحياد منها دون أن يسـتبين منهم في الصف العربي غير تلك المشاعر التي تنسجم مع جذور الحب والوئـام في عقيدتهم، وقد فرق القرآن ما بين موقفي الطائفتين:

{لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون}. (المائدة ٨٢).

وفي تعقيب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على الآية المذكورة يقـول: إن ما جاء في الآية والآيات الأخرى مثلها – قد جاء حاصلا لما تكنه ضمـائر الفريقين نحو المسلمين، ولذلك فصلت ولم تعطـف، وأن وجـود القسيسـين والرهبان بين صفوف النصارى قد كان سببا في اقتـراب مودتهم من المسـلمين لما هو معروف بين العرب من حسن أخلاق القسيسين والرهبـان وتواضعـهم وتسامحهم، وكانوا منتشرين في جهات كثيرة من بلاد العرب يعمرون الأديـرة والصوامع والبيع، وكما عرف عرب الشام من النصارى بالزهد ومسألة النـاس وكثر ذلك في كلام شعرائهم، وأن من أسباب نزول الآيـة كذلـك مـا يذكـره الطبري والواحدي وكثير من المفسرين عن ابن عباس ومجـاهد وغـيرهم: أن

ثمانية من نصارى الشام كانوا في بلاد الحبشة وأتوا المدينة مع اثنين وستين راهبا من الحبشة مصاحبين للمسلمين الذين رجعوا من هجرتهم للحبشة، وسمعوا القرآن وأسلموا وهم: بحيرا الراهب، وإدريس، وأشرف، وأبرهة، وثمامة، وقيثم، ودريد، وأيمن – وكانوا يحسنون العربية. (٩٢).

وكان للسيد المسيح من مشهد الذكرى ما يوحي بذلك القدر من وفاق المسيرة الرسالية في عالم يقوم على هذا المدى، وعالم سيقوم على المدى الآخر من نهاية هذا الزمان، وحيث يتعانق لواءا الرسولين الكريمين عند قيام الساعة التي ما فتئا ينبئان عنها على قدر من التوافق، وعلى ذلك فقد كانت صورة الرسول عيسى ابن مريم حاضرة عن الرسول محمد (ص) في مشهد الإسراء وفي غير هذا المشهد كأبهى ما تكون الصورة، فها هو ذا يجسد رؤيته له:

"أراني الليلة عند الكعبة في المنام فإذا رجل آدم كأحسن ما يرى من آدم الرجال تضرب لمدة بين منكبيه، رجل الشعر يقطر رأسه واضعا يديه على منكبي رجلين، وهو يطوف بالبيت، فقلت من هذا فقالوا: هذا المسيح ابن مريم"، وذكر عن هيئة ما قرب الشبه بـ (عمرو بن مسعود الثقفي) وهو صحابي مشهور كان كبيرا في قومه في الطائف وقيل أنه المراد بقوله تعالى: (على رجل في القريتين عظيم" (٩٣).

وعبر الرسول (ص) عن خصوصيات الولادة الروحية للسيد المسيح مما ذكر وما لم يذكر في الكتاب المقدس:

"ما من مولود يولد إلا نجسه الشيطان، فيستهل صارخا من نجسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه، اقرؤوا إن شئتم:

وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم" (عن أبي هريرة).

وانه – عليه السلام – من بين أشهر ثلاثة ممن تكلموا في المهد بحسب رواية الحديث الشريف: "لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له جريج، كان يصلي جاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلي، وقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات، وكان جريج في صومعته فتعرضت له امرأة فكلمته فأبى فأتت راعيا فأملكته من نفسها فولدت غلاما، فقالت: من جريج فأتوه فكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى، ثم أتى الغلام، فقال : من أبوك يا غلام؟ فقال : الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال : لا من طين، وكانت امرأة ترضع ابنا لها من بني إسرائيل فمر بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللهم اجعل ابني مثله، فترك ثدييها فأقبل على الراكب فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه قال أبو هريرة:– كأني انظر إلى النبي يمص إصبعه –، ثم مر بأمه فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقالت: لم ذاك ؟، فقال الراكب جبار من الجبابرة وهذه الأمة يقولون: سرقت، زنيت، ولم تفعل".

.. وبمثل ما أنزل القرآن الكريم السيدة العذراء مريم تلك المنزلة السامية بين النساء، كذلك مجدها الرسول محمد (ص) بقوله:

"كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران".

.. وإقرارا بقيمة الدور الرسالي الذي أداه الأنبياء جميعا فإن النبي محمد (ص) قد أفاد بأخوة الأنبياء، ونوه من ضمن ذلك بما يربطه بالحلقة الأقرب من السلسلة الرسالية من وثوق الصلة جدا يصدق فيه وحدة الأيمان في منطلقاته الأساسية كعامل جوهري من عوامل الشد الرسالي إلى الغاية الكبرى التي

تنشدها الأديان السماوية جميعا، حتى لكأنك ترى صورة موسى في عيسى ويحيى، وصورة عيسى في محمد، وصورتهم وتظاهرهم في يعقوب، وإسحق، وإسماعيل في صورة إبراهيم، وصورة محمد فيهم جميعا.

ومن يقرأ القرآن بالجملة يجد وضوح ذلك وضوح الشمس في رابعة النهار، ومن يقرأ الحديث النبوي لا يجد إلا ذلك التأكيد على وحدة المسار الرسالي للأديان، وقد بلغ الأمر بالرسول محمد (ص) في ذلك إلى أن يضع الدور الأخوي للرسول فوق صفتهم كأنبياء، بل بلغ الأمر أن يوفق، بل يساوي إقرار الشهادة في الإسلام – وهي أعلى وأهم إقرار عقائدي – ليكون إقرارا مشتركا بالشهادة لله وللرسول محمد، وللرسول عيسى على حد سواء، كما في الحديث الشريف التالي:

"من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل". (عن عبادة عن النبي (ص). (٩٤).

... ولا غرابة في ذلك فإن الكثير مما تنطق به نصوص القرآن الكريم – عدا ما يتفصل من الحديث النبوي – يفضي إلى هذه النتيجة من الاحتكام إلى شريعة الله الواحدة التي لا تتجزأ قدر تجزؤ الدور الرسالي لكل نبي، وإذا لم يكن الكتاب المقدس قد أشار صراحة إلى ذلك الدور المشترك للرسالة الدينية، فإن القرآن الكريم عوض الحديث النبوي – قد أشار بكل الصراحة والوضوح إلى حضور الرسالة الإسلامية في كل الرسالات النبوية الأساسية:

{الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون..} (الأعراف: ١٥٧).

وفي ما يؤول الأمر إلى اتحاد الموقف الرسالي في النقطة التي تستكمل فيها المسيرة الرسالية دورتها، وهو ما تؤكده شريعة الرسالتين المسيحية والإسلامية على وجه الخصوص صيرورته الحتمية مشيرة بذلك إلى جملة من العلامات الدالة لتحققه، وقد أشار الحديث النبوي إلى ذلك تحديدا ليكون للسيد المسيح حضوره في الدائرة الإسلامية من ذلك الموقف، ودعونا نقرأ من علامات تلك الأيام في الكتاب المقدس، وفي الحديث النبوي الشريف، فالسيد المسيح قد حذر مرارا من فتنة المسيح الدجال الذي ينتحل اسمه وصفته، ويتولى فتنة الناس بما يعرض لهم من المعجزات والتي يقدم الحديث النبوي وصفا مفصلا لها، ومما قاله بشأن ذلك:

".. سيجيء كثير من الناس منتحلين اسمي، فيقولون أنا هو المسيح !، ويخدعون كثيرا من الناس، وستسمعون بالحروب وبأخبار الحروب، فإياكم أن تفزعوا، فهذا لا بد منه... ويظهر أنبياء كذابون كثيرون ويضللون كثيرا من الناس، ويعم الفساد، فتبرد المحبة كثيرا بين الناس، ومن يثبت إلى النهاية يخلص وتجيء النهاية بعدما تعلن بشارة ملكوت الله هذه في العالم كله، شهادة لي عند الأمم كلها".

".. ولولا أن الله جعل تلك الأيام قصيرة لما نجا أحد من البشر، ولكن من أجل الذين اختارهم جعل تلك الأيام قصيرة، فإذا قال لكم أحد هذا هو

المسيح هنا، أو ها هنا فلا تصدقوه، فسيظهر مسحاء دجالون، وأنبيــاء كذابــون يضفون الآيــات والعجائب العظمة ليضلوا إن أمكن حتى الذين اختارهم الله، هـا أنا أنذركم، فإن قالــوا لكم: ها هو في البرية، فلا تخرجوا إلى هناك، أو ها هــو في داخل البيوت فلا تصدقــوا، لأن مجيء الإنسان يكون مثــل الــبرق الــذي يلمــع من المشرق ويضيء..

وفي الحال بعد مصائب تلك الأيام، تظلم الشــمس ولا يضــيء القمــر وتتساقط النجوم من السماء، وتتزعزع قوات السماء، وتظهر في ذلــك الحيــن علامة ابــن الإنسان في السماء.. ويرى الناس ابن الإنسان آتيا علــى ســحاب المساء في كــل عزة وجلال فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت إلــى جــهات الريح الأربع ليجمعــوا مختاريه من أقصى السموات إلى أقصاها.." (متيـن ٢٤: ٣ - ١٤، ٢٢ - ٣١).

ويكمل الرســول محمد (ص) مشوار قصة المســيح الدجــال فيحــدث صحابته عن جملة صفاتــه، وما يكون من أمره، وما يظهره من المعــاجز مــا يغري الناس باتباعه، وما يكون من أمر النخبة الصالحة من المسلمين في بيــت المقدس يومذاك وهي تلتحق بركب المنقذ السيد المسيح فتكون الصلاة هناك فــي البلدة المقدسة، في ما ينبري السيد المسيح للدجال حيث يظهره الله عليه، ومــن ضمن شهادته (ص) في ذلك:

".. أنه لم تكن فتنة أعظم في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم مــن فتنة الدجال، وأن الله لم يبعث نبيا إلا حذر منه الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وهــا هو خارج فيكم لا محالة، وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم فأنا حجيج لكل مســلم، وإن يخرج من بعدي، فكل امرئ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم".

"يأتي – الدجال – القوم فيدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ما بأيديهم شيء، ثم يمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنزك فينطلق فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلا ممتلئا شبابا فيضربه بالسيف ضربة فيقطعه جزئين رمية لغرض، ثم يدعوه فيقبل يتهلل وجهه يضحك... ثم يثني الدجال فيقول:

أنا ربكم ولا ترون ربكم حتى تموتوا... فبينما هم كذلك، بعث الله عيسى ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضع كفيه على أجنحة ملكين ، إذا طأطأ رأسه قطر. وإذا رفعه ينحدر منه جمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فينطلق حتى يدركه عند باب لد فيقتله، ثم يأتي بني الله عيسى قوما قد عصمهم الله، فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة..".

".. وإذ المسلمون في بيت المقدس من قليل، وإمامهم رجل صالح، فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح" إذ نزل عليهم عيسى بن مريم الصبح. فيرجع ذلك الإمام منكص، يمشي القهقرى، ليتقدم عيسى يصلي بالناس، فيضع يده بين كتفيه، ثم يقول له: تقدم فصل فإنها لك أقيمت، فيصلي بهم إمامهم، فإذا انصرف، قال عيسى عليه السلام: افتحوا الباب، فيفتح وراءه الدجال، معه سبعون ألف يهودي كلهم سيوف مجلى وساج، فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هاربا، ويقول عيسى عليه السلام: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فندركه عند باب الله فيقتله" (٩٥).

.. وهكذا نقف في شهادة الرسول محمد (ص) عن المسيح الدجال عند حقيقة أخرى من حقائق التكامل في الإبلاغ والموقف الرسالي، إذ يتوحد فصلا

الإيمان السابق واللاحق في هذه الواقعة الحاسمة التي يكون للسيد المسيح فيها دور حاسم في القضاء على فتنة الدجال ليسدل الستار عليها، وليكون ذلك مدخلا إلى القيامة الكونية في يوم الدينونة في يوم الدينونة والتي مشهدها عظيم فيه من توافق الشواهد في نصوص الشرائع ما بينها من جملة التوافق في مسارها الرسالي ما يجعل منها أمة في الأيمان تتابعت فيها بلاغات الأنبياء والرسل، فاتفقت فصائلها في أحيان واختلفت في أحيان أخرى على قدر ما تراءى لها من بينات التوافق وما لم يتراءى لها ذلك:

{كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم} . (البقرة: ٢١٣).

وعند الفيلسوف روجيه غارودي فإن الآية المذكورة تفيد المعنى في أن: غاية الوصول إلى الحقيقة في أن أي عضو من أعضاء المجتمع الدولي هو عضو مسؤول بشكل لا إرادي عن جميع أعضاء المجتمع، وأن فكرة التوحيد لا تعني إثبات وحدانية الله المطلقة أو إيجاد العالم الذي أنشأه فحسب، بل إن كل فرد من الأفراد ومجتمع من المجتمعات ليس عليه إلا واجب الخضوع لله بالطريقة التي يؤدي فيها خدمته للمجتمع العالمي للإنسان، خلافا للفردانية التي تسعى لجعل الفرد مركزا أو مقاسا لجميع القضايا، وخلافا لتحويل نمط المعيشة إلى غاية تخضع لحسابات الربح والخسارة كمجال يتنفس فيه الفرد مع الآخرين. (٩٦).

* * * * * *

المبحث الثامن

مصداقية الدور الرسالي
وانتقالته الإنسانية

مصداقية الدور الرسالي

وانتقالته الإنسانية

مصداقية الدور الرسالي وانتقالته الإنسانية

من الممكن اعتبار درجة المصداقية، أو الوقوف من المعايير والمؤشرات الحيوية لقياس كفاءة الأداء للإبلاغ الرسالي، وعمليا فإن هذا المعيار قد سجل حضوره المميز في انتقاله دائرة الابلاغ الرسالي من أفقها الضيق ضمن النطاق الإقليمي إلى الدائرة الأوسع من المحيط الإنساني، اتفاقا مع تيقن روادها والمؤمنون بها بذلك الدور الذي جسده أساسا عمق الأيمان الناتج من عمق التصديق والوثوق والذي يشكل العامل الأساس لخلق أقوى الدوافع وأشدها في مداها الأرحب والأعمق أثرا وتأثيرا.

فالمسيحية كادت أن تنحسر أو تتلاشى على إثر البطشة الهيرودسية بالسيد المسيح، والتضييق الشديد على تلامذته في محيط الدائرة الإسرائيلية، لولا انبعاث وتجدد درجة الوثوق في نفوس النخبة من تلامذة السيد المسيح الذي وعوا تماما وصايا وتعاليم سيدهم المعلم، وبخاصة ما أملاه عليهم في آخر لقاء له معهم، وقبل أن تلتف عليه حبال الكيد.

ففي أول يوم من عيد الفطير – كما يذكر الكتاب المقدس – : جاء التلاميذ إلى يسوع وقالوا له: "أين تريد أن نهيئ لك عشاء الفصح"، فأجابهم: "اذهبوا إلى فلان في المدينة وقولوا له: يقول المعلم: جاءت ساعتي، وسأتناول عشاء الفصح في بيتك مع تلاميذي"، فعمل التلاميذ ما أمرهم به يسوع وهيأوا عشاء الفصح.

وفي المساء جلس يسوع للطعام مع تلاميذه الأثني عشر، وبينما هم يأكلون قال يسوع: "الحق أقول لكم: واحد منكم سيسلمني"، فحزن التلاميذ كثيرا وأخذوا يسألونه، واحدا واحدا: "هل أنا هو، يا سيد" ؟ !، فأجابهم: "من يغمس خبزته في الصحن معي هو الذي سيسلمني، فابن الإنسان سيموت كما جاء في الكتاب، ولكن الويل لمن يسلم إبن الإنسان، كان خيرا له أن لا يولد"، فسأله يهوذا الذي سيسلمه: "هل أنا هو، يا معلم" ؟، فأجابه يسوع: "أنت قلت".

وبينما هم يأكلون، أخذ يسوع خبزا وبارك وكسره وناول تلاميذه وقال: خذوا كلوا، هذا هو جسدي"، وأخذ كأسا وشكر وناولهم وقال: "هذا هو دمي، دم العهد الذي يسفك من أجل أناس كثيرين لغفران الخطايا، أقول لكم: لا أشرب بعد اليوم من عصير الكرمة هذا، حتى يجيء يوم أشربه معكم جديدا في ملكوت أبي"، ثم سبحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون. (متي ٢٥: ١٧ – ٣٠).

وتتابع المشهد المثير بعدئذ حين قدم السيد المسيح صورة المشهد للرحلة الشاقة التي سيمضي بها تلاميذه قدما في مسيرة الإبلاغ الرسالي بعد أن قدم التلاميذ لمعلمهم شهادة الولاء حين روى لهم نبوءة الكتاب في انتهاء إقامته الجسدية بينهم لتتمثل بعدئذ إقامته الروحية فيهم:

"في هذه الليلة ستتركونني كلكم، فالكتاب يقول: سأضرب الراعي، فتبدد خراف القطيع، ولكن بعد قيامتي من بين الأموات، أسبقكم إلى الجليل، فقال بطرس: لو تركوك كلهم فأنا لن أتركك". فقال له يسوع: الحق أقول لك: في هذه الليلة، قبل أن يصيح الديك، تنكرني ثلاث مرات" فأجابه بطرس: لا أنكرك وإن كان علي أن أموت معك"، وهكذا قال التلاميذ كلهم". (متي ٢٦: ٣١، ٣٥، مرقس ١٤: ٢٧ – ٣١).

.. وكان الذي كان مما حدث به السيد المسيح صدقا، فقد أنكر بطـــرس ثلاثا أنه كان مع السيد المسيح تقية، وتذكر بعدئذ قول يسوع، فخرج وبكى بكـاء مرا، وندم يهوذا لما بدر منه من التآمر على سيده لقاء الثلاثيـــن مــن الفضـة ليرميها في الهيكل وينصرف ليشنق نفسه بعد ذلك، فيما ظل البقية من التلاميـذ المخلصين يترقبون الساعة التي يبدأون فيها مشوار تلك الرحلـة الشـاقة التـي ابتدأت ولم تنتهي..

وكثيــرا ما كان الناس في مثل تلك المشاهد المثيرة التي يتعــالى فيـها سيف الجلاد وسطوته، ويرتفع فيها ضجيج الغوغاء الذين ينحدرون مع انحـــدار طوفان الشر وهم لا يدركون إلا الشاخص من مشاهد يومهم فحسب.. في مثـــل تلك الساعة الرهيبة التي أخذ فيها السيد المسيح ليصلبن أيقــن العامة أنــــه قــد صلب فعلا، وانتهى كل شيء، فيما أدرك الخاصة من حواريـــه أن معلمهم لـــم يبلغ ذلك العود المنصوب صليبا، بل ارتقى عليه إلى حيث لم تشاهد الأبصـــار، ارتقاء إلى ملكوت المساء، وسوى السيد المسيح فإنه قد صلب ذلك الرجل الـــذي صادفه جنود الحاكم وهم يخرجون من المدينة بعد أن أدوا أدوارهم في مســرحية الصلب،والذي سخروا ليحمل صليب يسوع، فأعطوه خمرا ممزوجة بالمر، وقـــد رفــض أن يشربها لما ذاقها، فصلبوه واقترعوا على ثيابه واقتسموها، وجلســـوا هناك يحرسونه.

وقد وضعوا فوق رأسه لا فتة مكتوبة فيها سبب الحكم عليـــــه: "هنـــــا يسوع ملك اليهود"، وصلبوا معه لصين، واحد عن يمينه، وواحــد عن شـــماله، فيما كان المارة – من ضمن جمهور الغوغاء – يشتمونه ويهزؤون منـــه أنــــه هادم الهيكل وبانية في ثلاثة أيام !، وغير ذلك من هزؤ رؤساء الكهنة، ومعلمــو الشريعة والشيوخ... كتلة هائلة من الحقد انهالت على السيد المسيح، كمثـــل مـــا انهالت عليه من قبل كتل الناس تباركه وتمجده يوم كانت تتراءى لهم معجزاته..

فكان الجمع يطلبه لغاية عارضة من غايات الدنيا، فيما كان الخاصة – ممن أدركوا حقيقته – يطلبونه لغاية الأيمان الذي استقر في نفوسهم، فكانت قيامته فيهم بعد ذلك، القيامة التي استحضرها جيلهم، واستحضرتها الأجيال من بعدهم، كما استحضرها الرسول الذي وعد أيضا بقيامة المسيح في أمة غير أمته تستكمل دوره كاملا في مسيرة الإبلاغ الرسالي.

* * * * *

وتلك الدائرة المغلقة التي استعصت على الرسول موسى طويلا ولم يتمكن من اقتيادها إلى الغاية الكبرى التي حررت كيانها من أبشع لون من ألوان العبودية والاضطهاد – إلا بالآيات الإعجازية المحكمة التي أرهبت وأرعبت الطاغية فرعون وملأه حتى أذعن للأمر الواقع ليطلق بني إسرائيل من عبوديته، ثم ليعدل عن قراره ليلاحق بني إسرائيل بحيولة ومركباته ليسد عليهم البر والبحر فينقلبوا على موسى المرة تلو المرة متمردين في صحراء سيناء، وما بعدها، فيفزع صارخا إلى ربه ليحميه من شرور ذلك التمرد المريع، فينجد مرة أخرى بمعاجز أخرى، ويجوع الناس في ذلك الركب الراحل فتطعمهم السماء بالمن والسلوى زمنا غير قليل، ويظمأون فتتفجر لهم الأرض ينابيعا يعرف كل سبط من أسباطهم فيها مشربه، ولم تكد المسيرة تبلغ غايتها من أرض كنعان حتى يبلغ الجهد مبلغه فهم ومن رسولهم الذي كان من بين أكثر الرسل صبرا واحتمالا لأذى قومه الذين لم تحتمل رسالته ما احتملت رسالات الله لسواهم من الناس إلا أن تكون على الخاصة من أمرهم دون العام من أمر الناس سواهم، حتى لتكون اليهودية دون المسيحية، ودون الإسلام دينا قوميا يختص ببني إسرائيل...

ويواجه السيد المسيح بعد ذلك وهو ينطلق بدعوته ضمن ذلك الرحاب العتيق – مثل تلك المحنة التي واجهها موسى بالانشغال بخواص المواقف، ومن حالات ذات طبيعة تختلف عن تلك الحالة التي استلزمتها مسيرة الإبلاغ الرسالي لسلفه موسى عليه السلام، فأولئك القوم الذي غالب النبي موسى قدره فيهم مغالبة مريرة حتى وطد فيهم الأذعان للرب الواحد بعد أن قدم لهم من الشواهد والدلالات ما لا تقدمه رسالة أخرى من ضروب المعجزات..، ليحتاجوا هذه المرة إلى نمط آخر من المعجزات...

وفيما لم يكن الرسول عيسى عليه السلام ليحتاج إلى المرور في ذلك النفق الطويل من المجابهة مع قوى الشرك، فإنه قد احتاج إلى اجتياز نفق السلطة الغاشمة المتمكنة في المجتمع الإسرائيلي متحالفة مع رؤساء الكهنة وشيوخ المدينة والذين كان أخطر ما في موقفهم تمسكهم بقيم منحرفة عن أصول الشريعة الموسوية، فإنهم كانوا يشكلون مع السلطة الزمنية أداة تحكم ونفوذ طاغي في مجتمعهم، فكان هؤلاء تماما تمثل ما كانت قريش بالنسبة لمحمد (ص)، أرستقراطية قبلية متنفذة يدين لها الناس بالولاء في السياسة وفي الدين.

.. والذي يقرأ نصوص العهد الجديد من الكتاب المقدس يجد أن الجزء الأعظم من جهاد النبي عيسى وجهوده كانت مع تلك الفئة الثيولوجية المتنفذة الممثلة بالفريسيين ورؤساء الكهنة، وأن الجدل الدائر معهم يشبه ذلك الجدل الذي أقامه القرآن على نحو أكثر عمقا مع أساطين الشرك في مكة، وأنه بقدر ما كانت سيرة السيد المسيح مع العام تمتاز بالسماحة واللطف، فإن موقفه مع الفريسيين ومعلمي الشريعة كان يتسم بالحدة والشدة، إذ كان يقاوم فيهم طغيان السلطة الدينية المنحرفة والمتنفذة، كما كان يقاوم فيهم ما يزرعونه من أفكار وقيم منحرفة عن الأصول الصحيحة للشريعة.

وقد كان أمر الناس في عامتهم أهون عليه في استجابتهم لنداء الشـــريعة الحقة وامتثالهم للنصح، وانقيادهم للإيمان. من الأمر المستعصي لهؤلاء المـــردة الذين أفسدوا على الناس ذكرهم وتفكيرهم، وقد عرض السيد المسيح في تقريعـــه لهم، وفي التنبيه لشرورهم لمشاهد كثيرة من سلوكهم:

"معلمو الشريعة والفريسيون على كرسي موسى جالسون. فـــافعلوا مـــا يقولونه لكم واعملوا به، ولكن لا تعملوا مثل أعمالهم، لأنهم يقولون ولا يفعلـــون، يخرمون أحمـــالا ثقيلة شاقة الحمل ويلقونها على أكتـــاف النـــاس، ولكنـــهم لا يحركون إصبعا تعينهم على حملها، وهم لا يعلمون عملا إلا ليساعدهم النــــاس، يجعلون عصائبهم عريضة على جباههم وسواعدهم، ويطوقون أطراف ثيابـــهم، ويحبون مقاعد الشرف من الولائم ومكان الصدارة في المجامع والتحيـــات مـــن الأسواق..".

"الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيون المراؤون، تغلقـــون ملكـــوت السموات في وجوه الناس، فلا أنتم تدخلون، ولا تتركون الداخلين يدخلون".

"الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيون المــــراؤون تـــأكلون بيـــوت الأرامل وأنت تظهرون أنكم تطيلون الصلاة، سينالكم أشد العقاب..".

"الويل لكم يا معلمي الشريعة والفريسيون المراؤون، تقطعـــون البحـــر والبر لتكسبوا واحدا إلى ديانتكم، فإذا نجحتم جعلتموه يستحـــق جهنم ضعف مـــا أنتم تستحقون..".

"الويل لكم أيها القادة العميان، تقولون: من حلـــف بالـــهيكل لا يلتـــزم بمينه، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم بيمينه، فأيما أعظـــم، أيـــها الجـــهال العميان ؟، الذهب أم الهيكل الذي قدس الذهب".

"الويل لكم... تعطون العشر من النعنع والكمون، ولكنكم تهملون أهم ما في الشريعة، العدل والرحمة والصدق، وهذا ما كان يجب عليكم أن تعلمون..".

"والويل... والويل لكم...". (متي ٢٣: ٢ – ٢٧).

وبمثل ذلك الأسلوب النقدي اللاذع كان السيد المسيح يتحامل على تلك الفئة الدينية الرجعية، محذرا الشعب منها، بل أنه ليدخل الهياكل لينبه الناس إلى ما يتوجب عليهم فيها مما يخرج عن صلب المهام الموكولة لمثل هذه المرافق، ففي مرة: دخل الهيكل وطرد جميع الذين يبيعون ويشترون فيه، فقلب مناضد الصيارفة ومقاعد باعة الحمام، وقال لهم، جاء في الكتاب: بيتي بيت الصلاة، وأنتم جعلتموه مغارة لصوص". (متي ٢١: ١٣).

وفي غير ذلك من مشاهد الإبلاغ العام كان السيد المسيح يقدم أمثلته الوافرة ونصائحه لتلاميذه ولعوام الناس، ليقدم لهم مبادئ الشريعة بأسلوب الحكمة، وبالدلائل المعتبرة، ونراه وهو بارع في ذلك براعة لقمان الحكيم، وسليمان النبي قبله، وبراعة الرسول محمد (ص) فهنالك كانت أمثلته عن (الخروف الضال، العبد الذي لا يغفر، الشاب الغني، العمال في الكرم، الكرامين، وليمة الملك..الخ).

وفي كلها كان يبسط الشريعة "لعوام الناس، ثم ليكون له من خاصة تلامذته شأن آخر في الوصايا، وفي تجلية المواقف وما سيعرض لهم من شؤون وأمور الإبلاغ الرسالي ما يعنون به غير الذي يعني به أو ينشغل عامة الناس، فتكاليف ذلك الإبلاغ في مثل تلك الظروف القاسية التي حصلت إبان عهد الرسول عيسى، وبعد ذلك قد فرضت على رسل السيد المسيح كما فرضت على رفاق الأنبياء وصحابتهم ضرائب باهظة من التضحيات والبذل.

وبمثل ذلك التقريع لمعارضي الإبلاغ الرسالي ومناوئيه كان قد تولاه القرآن الكريم بعدئذ، وهو يشن حملته الشعواء على الفئات المتنفذة والنفعية التي نصبت نفسها لعداء الرسالة الإسلامية إبان انطلاقها، لينذرهم بالويل والثبور:

{ويل لكل همزة لمزة* الذي جمع مالا وعدده* أيحسب أن ماله أخلده* كلا لينبذن في الحطمة* وما أدراك ما الحطمة* نار الله الموقدة* التي تطلع على الأفئدة* إنها عليهم مؤصدة} (الهمزة: ١ – ٨).

{تبت يدا أبي لهب وتب* ما أغنى عنه ماله وما كسب* سيصلى نارا ذات لهب* وامرأته حمالة الحطب* في جيدها حبل من مسد} (المسد: ١– ٥) .

{فويل للمصلين* الذين هم عن صلاتهم ساهون* الذين هم يراؤون* ويمنعون الماعون} . (الماعون: ٤ – ٧).

{ويل للمطففين* الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون* وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون} . (المطففين: ١ – ٣).

{المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف، ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون . .} . (التوبة: ٦٧).

.. فيما كان الرسول محمد (ص) يحذر من الأئمة "الضالين المضلين"، وينبه عن كل ذي مكر ودجل ورياء...

* * * * *

وبمثل ما اقتحم الأنبياء من أولي العزم الساحة الاجتماعية في محيطها المحدود أو المتسع طبقا لمنطلقات رسالاتهم، فإن صحابتهم والمؤمنين بهم قد ارتهنوا بعدهم للسياق المبدئي الذي يحكم ذلك التوجه الذي يفرض نفسه على طبيعة التوجه في الإبلاغ، أن يكون له مداه القومي، أو الإنساني، فعلى عهد النبي موسى فإن دائرة الإبلاغ الرسالي قد انحصرت ضمن المحيط الإسرائيلي، منحكمة لاعتباراته القومية، والذي برزت طبيعته في مجمل الخطاب الرسالي وفي توجهات ذلك الخطاب لتظل دائرة الدين اليهودي إلى اليوم تدور ضمن الفلك الإسرائيلي، والواضح أن هناك علاقة جدلية قائمة بين المنطلق الرسالي والتوجه الرسالي، فالذي يقرأ لغة الخطاب الرسالي في العهد القديم من الكتاب المقدس يجد أن جملة الطرح فيه لا يتعدى الحالة الإسرائيلية، وأن جملة النشاط الرسالي للنبي موسى قد انحصر في موضوعة تخليص بني إسرائيل من نير الاستعباد الفرعوني وتمكينهم من أن يؤسسوا كيانهم المستقل على هدي المبادئ الدينية التي تتواصل مع دعوة النبي إبراهيم في الجذر التوحيدي فحسب.

وإذا ما كانت اليهودية لتلتقي مع جملة الأديان السماوية في طبيعة الأحكام الدينية، وفي نمط السيرة السلوكية الدينية في خروجها المعهودة، فإنها لتختلف عن بعضها – كالمسيحية والإسلام – في التوجهات الإنسانية الشمولية.

فالمسيحيون الأولون الذي كانوا جزءا من المجتمع اليهودي، حيث انطلقت رسالتهم في رحابه قد وجدوا أنفسهم بعد عهد السيد المسيح مضطرين لأن يخرجوا بدعوتهم من شباك الدائرة الإسرائيلية، لاعتبارين أساسيين:

الأول : تمكين الفكر المسيحي من أن يجد له متنفسا يبلغ فيه القدرة الأكبر على الحركة، حيث كانت الساحة الإسرائيلية تضيق الخناق على هذا الفكر

الذي كان يعبره المزمتون من الفريسيين والكهان تدعمهم السلطة الزمنية – مخالفا لتقاليدهم وقيمهم السارية.

وأن السيد المسيح إنما اتبع سياسة المسامحة مراعاة للضرورات الموضوعية في زمنه وعلى ذلك النحو الذي لم يسمح فيه باللجوء للمواجهة في ظرف غير متكافئ تماما كمثل تكافؤ القدرة الإسلامية يوم أذن للرسول محمد (ص) بالمواجهة، وفيما تهيأت مستلزمات إقامة القاعدة الرسالية وامتد شوط وزخم الإبلاغ الرسالي بعد حياة الرسول محمد (ص)..

فيما لم يكن ذلك متاحا للرسول عيسى عليه السلام، فالتلاميذ الاثنا عشر كانوا كل عدة الرسالة يوم ألقي القبض عليه بتآمر رؤساء الكهان وشيوخ المدينة، فيما هم قد أغروا واحدا من تلاميذه ليكون عونا لهم في ذلك، ولو لم يحتاط البعض من تلاميذه، أو يكفوا عن المقاومة امتثالا لأمر سيدهم الذي كان يمتلك الحس الواقعي لتلك الضرورة، لانتهى أمر تلك الدعوة الناشئة التي ولدت ولادة عسيرة في بيئة تتزلزل عليها أقدامها –، وآمل أن تتاح الفرصة لي لكتابة موضوع مستقل عن "إدارة المسامحة عند السيد المسيح" – بإذن الله تعالى.

الثاني: أن المنطوق الإنساني للرسالة المسيحية يفرض حالة التوجه للساحة الإنسانية، ومخاطبة العقل الإنساني سيما وأن العقل الإسرائيلي لم يستجب الاستجابة المطلوبة لنداءاتها لتظل الدعوة المسيحية زمنا ضمن الدائرة المحدودة، وقد أسهم رسل السيد المسيح في جهد مضن ومثابرة لينتقلوا بالرسالة المسيحية انتقاله نوعية بارزة كانت كلفتها عالية بالجهد، وبثمن باهظ من التضحيات فيما كانت نتائجها مجزية للغاية.

وقد بذلك الرسول بولس وبرنابا – الذين اضطهدهما اليهود وطردوهما من ديارهم – جهودا مضنية في هذا السبيل، حيث نقلا الدعوة المسيحية إلى غير اليهود، واقاموا الأساس لبناء الكنائس المسيحية في أنحاء شتى من بلاد الرومان وغيرها، وقد كانت أفكار القديس الرسول بولس – والتي تضمنتها رسائله وخطبه – قد مثلت الغاية في إدراك المضمون الإنساني للمسيحية، إذ مكن جهده ونظرته الشمولية من أن تبلغ المسيحية غايتها في ذلك، ففي رسالته إلى كنيسة روما أعلن:

"أن الله إله سائر الأمم، لأن الله يبرر اليهود بالأيمان، كما يبرر غير اليهود بالأيمان" معربا أن: "مجازاة الله للناس هي بالأعمال مما لا يفرق بين جنس وآخر، فـ "الويل والعذاب لكل إنسان يعمل الشر من اليهود.. ثم من اليونانيين، لأن الله لا يحابي أحدا، فالذين خطئوا وهم بغير شريعة موسى فبغير شريعة موسى يهلكون، والذين خطئوا ولهم شريعة موسى فبشريعة موسى يدانون، وما الذي يسمعون كلام الشريعة هم الأبرار عند الله، بل الذين يعملون بأحكام الشريعة هم الذين يتبررون، فغير اليهود من الأمم الذين بلا شريعة إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم، مع أنهم بلا شريعة، فيثبتون أن ما تأمر به الشريعة مكتوب في قلوبهم، وتشهد لهم ضمائرهم وأفكارهم، فهي مرة تتهمهم، ومرة تدافع عنهم" (رومة ٢: ١٠ – ١١).

وجاء في عظة بطرس " : "أرى أن الله في الحقيقة لا يفضل أحدا على أحد، فمن خافه من أية أمة كانت وعمل الخير كان مقبولا عنده". (أعمال ١٠: ٣٤ – ٣٦).

وبمثل هذه الروحية تجاوزن المسيحية في أعمال الرسل نطاق نشأتها لتبلغ النطاق الإنساني..

وفي الإسلام نجد أن بلاغات الرسالة قد تدرجت ضمنيا من نطاق العشيرة، فالمدينة، فالبلد إلى الدائرة الإنسانية انسجاما مع المنطلقات العامة للإسلام:

"وأنذر عشيرتك الأقربين" (الشعراء: ٢١٤).

"لتنذر أم القرى ومن حولها". (الشورى: ٧).

"وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا" (سبأ: ٢٨).

وبمقتضى تلك الخصيصة الإنسانية لرسالة الإسلام فقد انتظم في صفوفها الكثير من غير العرب، فكان من السابقين إلى الإسلام بلال الحبشي، وصهيب بن سنان الرومي، وسلمان الفارسي، والذين كانوا جزءا لا يتجزأ من الأمة التي حملت لواء الإسلام ونشرته رسالة هدى وسلام للناس أجمعين.

والواضح أن المسيحية قد بلغت كذلك الرحاب الإنسانية حيث جاوزت الدائرة الإسرائيلية لتستظل في عقيدتها مختلف الأجناس كمثل الإسلام ولتمضي مع ركبه في قافلتين تسيران في خطين متوازنين في أفرع شتى من فروع الأرض التي يتباريان ويتباوبان على حصة واحدة مشتركة من الأيمان، وإذا كنا نجد في هذا المسار الديني صفة الوئام القومي والإنساني، فإننا لا نجد في اليهودية إلا صفحة الوئام القومي تأخذنا إلى ذلك عنوة نصوص العهد القديم من الكتاب المقدس وهي تعرب عن ذلك فيما لا تعرب عنه جملة النصوص للعهد الجديد، وجملة النصوص والحوادث الإسلامية.

وأن هؤلاء الذين حملوا الحروب الصليبية وباء العنصرية إلى النصرانية قد اجترؤوا، وتجرؤوا على المسيح والمسيحية، ولم يكن لهم من مقام التبشير الصحيح ما كان لرسله الأولين الذين تحملوا الإيذاء والاضطهاد،

ولم يؤذوا ويضطهدوا وقد تمثلوا في ذلك سيرة سيدهم المسيح الذي ما تجرأ في حياته على أحد، واحتمل الجور جائرا محتسبا، حتى أنه لم يسمح لأحد من تلامذته بأن يحمل سيفه ليقاتل مضطهديه، بل إنه نهى أحد رفاقه الذي مد يده إلى سيفه واستله ليضرب خادم رئيس الكهنة فيقطع أذنه بعد أن هاله القاء القبض على السيد المسيح بتلك الصورة، ليقول له بكل الطمأنينة: "رد سيفك إلى مكانه فمن يأخذ بالسيف يهلك" (متي ٢٦: ٥٣).

بل أنه – كما ذكر – "لمس أذن ذلك الرجل فشفاها" (لوقا ٢٢: ٥١)، وقد وعى رسل السيد المسيح دعوته المسامحة ليترجموها في تعاملهم بعد ذلك، فقد أورد الرسول بولس في رسالته إلى كنسيته رومة:

"لا تجاوزوا أحدا شرا بشر، واجتهدوا أن تعملوا الخير أمام كل الناس، سالموا جميع الناس إن أمكن على قدر طاقتكم، لا تنظموا لأنفسكم أيها الأحياء، بل دعوا هذا الغضب لله، والكتاب يقول: لي الانتقام، يقول الرب وأنا الذي يجازي" (رومة ١٢: ١٧ – ٢٠). وقد مر بنا ما كان قد تعرض له الرسول بولس من الاضطهاد والعنت.

وفي سيرة الرسول محمد (ص) وصحابته كمثل ما في سيرة السيد المسيح وصحابته، التجسيد العملي للأخلاق الرسالية التي انتظمها البلاغ القرآني نصوصا مشرقة في أدب التعامل الرسالي:

{ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم} . (فصلت: ٣٤).

{وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم} . (التغابن: ١٤).

{فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون} . (الزخرف: ٨٩).

{فاصفح الصفح الجميل} . (الحجر: ٨٥).

"فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين". (آل عمران: ١٥٩).

وفي البعد الشمولي للإسلام تجلت في حركة الفتح الإسلامي سماحة الفاتحين في تعاملهم مع أهل البلاد المفتوحة، ويقول المؤرخ "ول - ديوارنت" شهادته في ذلك:

إن العرب المسلمين لم يكونوا في حروبهم همجا متوحشين"، منوها إلى أن: جيوش العرب كانت خيرا من جيوش الفرس والروم نظاما وأحسن قيادة، يألفون المشاق، وينالون جزاءهم من الفيء، وقد كان بوسعهم أن يحاربوا وبطونهم خاوية، ويعتمدوا على النصر في الحصول على طعامهم، مستذكرا ما أوصاهم به أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) من شمائل الخلق الجهادي:

"أوصيكم بعشر فاحفظوها، لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا طفلا، ولا شيخا كبيرا، ولا تقصروا نخلا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة.. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام، فإذا أكلتم منه شيئا فاذكروا اسم الله عليه، وتلقون قوما قد محضوا أوساط رؤوسهم تركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا.. اندفعوا باسم الله". (٩٧).

ومن بين الحقائق المتصلة بطبيعة ونتائج الفتح الإسلامي ما ذكره الأستاذ ساطع الحصري من: أن الإسلام لم يحتم على أهالي البلاد المفتوحة اعتناق الدين الجديد، ولذلك فقد استعربت جماعات كبيرة من سكان البلاد المفتوحة اعتناق الدين الجديد، ولذلك فقد استعربت جماعات كبيرة من سكان البلاد المفتوحة دون أن تعتنق الديانة الإسلامية، فتكونت بذلك جماعات عربية غير مسلمة فاشترك هؤلاء في الحياة العلمية والأدبية العامة، وساهموا في الإنتاج العلمي والأدبي مساهمة فعالة بجانب إخوانهم المسلمين، وقد نبغ من بينهم عدد غير قليل من الكتاب والخطباء والشعراء والعلماء وسواهم في العصور القديمة أو في العصر الحديث" (٩٨).

وفي ما يلاحظ أن الإسلام كالمسيحية لا يقفان بوجه زواج أبنائهم من بعضهم بعض، كما عهد انتقال جمع من أهل الكتاب من هذا الدين أو ذلك إلى الإسلام ولم يقف بعض أهال بعض الأديان حائلا دون ذلك، والواضح أن طبيعة الانتقال من دين لآخر إنما تحصل غالبا على نحو الانسياب أو التدرج في انحدار المسار الرسالي، على نحو يبدو فيه هذا الانحدار وكأنه الانتقال من سفح إلى سفح آخر أكثر قربا في مسافة الزمن إلى الله، ويعد سلمان الفارسي في الإسلام مثالا لذلك فقد تدرج بالانتقال من المجوسية فالنصرانية إلى الإسلام ليستقر على آخر سفح من سفوح الإبلاغ الرسالي، كذلك كأن شأن كعب الأحبار، وابن سلام من خاصة اليهود، فإنهم قد انتقلوا من اليهودية إلى الإسلام على نحو ما سيرد بيانه.

وكمثل هؤلاء فإن القديس الرسول بولس قد تحول من كونه الرجل اليهودي المتزمت الذي أسهم في اضطهاد المسيحيين بشدة إلى أنشط الدعاة المسيحيين وأشدهم إخلاصا وقد جاء من ضمن اعترافه في ذلك بعد اعتقاله في الهيكل:

"أنا رجل يهودي ولدت في طرطوس من كليلكية وتعلمت عند قومي غمالائيل شريعة آبائنا تعليما صحيحا، وكنت غيورا على خدمة الله مثلكم.. واضطهدت مذهب يسوع حتى الموت، فاعتقلت الرجال والنساء وألقيتهم في السجون، وبهذا يشهد لي رئيس الكهنة وشيوخ الشعب كلهم، فمنهم أخذت رسائل إلى إخوتنا اليهود في دمشق فذهبت إليها لاعتقال من كان مؤمنا بهذا المذهب فأسوقه إلى أورشليم لمعاقبته" (أعمال ٢٢: ٣ – ٥).

.. وأنه قد استجاب بعد ذلك لنداء التقي حنانيا في دمشق بأن يتعمد، ويتطهر من خطاياه، ويدعو باسمه، وأن الرب قد قال له أثناء غيبوبته في الهيكل في أورشليم: "هيا، سأرسلك إلى مكان بعيد إلى غير اليهود من الشعوب..".(أعمال ٢٢: ١٥، ٢١)، ليقول بولس بعدئذ أمام الحاكم بكل جرأة: "إني أعبد إله آبائنا على المذهب الذي يدعون أنه بدعة، وأني أؤمن بكل ما جاء في الشريعة وكتب الأنبياء، راجيا من الله ما يرجون هم، أي قيامة الأبرار والأشرار، فأنا مثلهم أبذل جهدي لأكون أبدا سليم النية عند الله والناس" (أعمال ٢٤: ١٤ – ١٧).

.. وبذلك فقد دخل بولس الرسول، كما دخل سلمان الفارسي، وكعب الأحبار، وابن سلام وغيرهم ممن طاوعوا أنفسهم للحقيقة النهائية في تحولهم إلى المنحى الشمولي في الإيمان في وصل السابق باللاحق من عقائدهم.

* * * * *

وعلى خلاف تلك الصورة نجد في العهد القديم من الكتاب المقدس ما يؤلب اليهود على الأقوام الأخرى والاستعلاء عليهم ودعوتهم إلى أن يمارسوا في غلبتهم عليهم كل وسائل التنكيل والبطش، بل الإبادة والاستئصال:

"وإذا أدخلك الرب إلهك الأرض التي أنت صائر إليها لترثها وأستأصل أمما كثيرة من أمام وجهك الحثيين والجرجاشيين والكنعانيين والغرزيين والحوبيين والبوسيين سبع أم أعظم واكثر منك، وأسلمهم الرب إلهك بين يديك وضربتهم فأبسلهم ابسالا.. لا تقطع معهم عهدا، ولا تأخذك بهم رأفة ولا تصاهرهم ابنتك لا تعطها لابنه وابنته لا تأخذها لابنك لانه يغوي ابنك على إتباعي فيعبد آلهة أخرى..!" (الاشتراع ٩: ١ – ١٣).

"والرب إلهك يستأصل أولئك الأمم من بين يديك قليلا قليلا لأنك لا تقرر على أن تفنيهم سريعا لئلا يكثر عليك وحش الصحراء، ويسلمهم الرب إلهك بين يديك، ويوقع عليهم اضطرابا شديدا حتى يفنوا ويدفع ملوكهم إلى يدك فتمحوا أسماءهم من تحت السماء فلا يقف أحد بين يديك حتى تفنيهم" (الاشتراع ٩: ٢٤ – ٢٦).

"وإما مدن أولئك الأمم التي يعطيها لك الرب ميراثا فلا تستبق فهم نسمة، بل أبسلهم إبسالا الحثيين والأموريين والكنعانيين والحوبيين والبوسيين كما أمرك الرب إلهك" (الاشتراع ٢٠: ١٧).

.. ومثل ذلك الكثير الذي يرد في نصوص شتى، ولا ندري كيف يجيز الله الغفور ذو الرحمة لأبناء هذا الدين من مثل ذلك ما لا يجيزه لأبناء الأديان الأخرى! فالإسلام الذي مارس عملية الفتح كما لم يمارسها دين آخر لم تبح له شريعته في كل مواجهاته مع المشركين والكفار أي شكل من أشكال العنت والشدة بلا مبرر، بل إن القران قد أفاد بإجارة المشركين وإبلاغهم مأمنهم:

{وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون *... فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين} (التوبة: ٦ – ٧).

كما أنه نهى عن سب الكفرة حتى لا يجرؤوا فيسبوا الله بالمقـــابل {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم} (الأنعام: ١٠٨).

صدق الله العظيــم .

المراجع والهوامش

١. لسان العرب/ ابن منظور (المجلد الثالث، ص:٤٥٠-٤٥١).
٢. درء تعارض العقل والنقل -ابن تيمية- دار الكنوز الأدبية الجزء الأول. (ص:٢٢٥-٢٢٦).
٣. المعتقدات الآرية -خزعل الماجدي- دار الشروق-عمان ص ١٥.
٤. جذور الديانة المندائية -خزعل الماجدي- مكتبة المنصور، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ١٦.
٥. موسوعة الأديان في العالم -دار كريس انترناشيونال. طبعة ٢٠٠٠-٢٠٠١، الجزء الرابع، ص ٢٨-٣٠.
٦. الدين المقارن -محمد أبو الفضل المنوفي، نهضة مصر، القاهرة ص٥٧-٥٨.
٧. جذور الديانة المندائية، ص ١٦-١٧.
٨. معجم اللاهوت الألهي -دار المشرق- بيروت، ١٩٨٦، ص٩١ .
٩. سيرة الله -جاك مايلز، ترجمة ثائر ديب، دار الحوار، اللاذقية، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٦-٢٨.
١٠. دائرة معارف القرن العشرين -محمد فريد وجدي، دار المعرفة بيروت، الطبعة الثالثة، المجلد السادس، ص٧٩٠.
١١. *الديانة المسيحية -نها نجار، دار الفكر اللبناني، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٩٥،ص ٧٠.
١٢. تاريخ الحضارات العام -إدوار بروي، ترجمة أسعد داغر، فريد م.داغر، منشورات عويدات، بيروت -باريس، المجلد الثالث، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤، ص١٢٣ .

١٣. المسيحية والحضارة العربية – د.جورج شـحاتة قنواتـي ، المؤسسـة العربية للدراسات والنشر، بيروت ص ٧٩.
١٤. الصلاة المندائية وبعض الطقوس الدينية –الشيخ رافد الشـيخ– عبـد الله الشيخ نجم، شركة التايمس، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٨٨ ص ٣٩.
١٥. موسوعة الأديان في العالم –الجزء الرابع، ص ٢٤٦–٢٤٧.
١٦. الصابئة في ماضيهم وحاضرهم –عبد الرزاق الحسني، مطبعة العرفـان، صيدا، الطبعة الرابعة ١٩٧٠، ص ٢٦.
١٧. الصابئيون حرانيين ومندائيين –د.رشدي عليان، مطبعـة دار السـلام – بغداد، ١٩٧٦، ص ١٠٥–١٠٦.
١٨. دراسات في حضارة الإسلام –هاملتون جب، ترجمة: د.إحسان عبـاس، د.حمد يوسف، د.محمد زايد، الطبعة الثالثة، ص ٢٤٠.
١٩. ترانيم زرادشت –جاك دوشن جيلمان، ترجمة: د.فيليب عطيـة، الهيئـة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ١٠.
٢٠. موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع، ص ٢٧٧.
٢١. تفسير الجلالين ، ص٥٤٠.
٢٢. تفسير الجلالين، هامش الصفحة ٧٠١.
٢٣. ترانيم زرادشت –ص ١٥٧ وما بعدها.
٢٤. موسوعة الأديان في العالم –الجزء الرابع، ص٩٣–٩٤.
٢٥. موسوعة الأديان في العالم –الجزء الرابع، ص ١١٥.
٢٦. معجم ديانات وأساطير العالم –د.إمام عبد الفتاح إمام، مكتبـة مدبولـي، القاهرة، المجلد الثالث، ص ٢٢.
٢٧. حكمة الأديان الحية –جوزيف كار، ترجمة: حسـين الكيلانـي، طبعـة ١٩٦٤، ص ١٢٢.

٢٨. قصة الحضارة -ول.ديوارنت، ترجمة: د.زكي نجيب محمـــود، لجنـــة التأليف والترجمة والنشر -الجزء الثاني- المجلد الرابع ص ٥١.
٢٩. معجم ديانات وأساطير العالم -المجلد الثالث، ص ١٥٨،١٨٥.
٣٠. موسوعة الأديان في العالم -الجزء الرابع، ص ١٩٤-١٩٥،١٤٧.
٣١. صحيح مسلم -مسلم بن الحجاج، دار إحياء الكتـــب العربيـــة، الطبعـــة الأولى، ١٩٥٥، الجزء الرابع، ص ٢٠٤٨.
٣٢. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني -محمـــود الآلوســـي، دار الفكر بيروت، ١٩٩٤، المجلد الأول، ص ٣٤٢-٣٤٥.
٣٣. الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص ٤٤.
٣٤. مفاهيم صابئية مندائية -ناجيـــة مراني، شركة التايمس، بغـــداد الطبعـــة الثانية ١٩٨٨، ص ٤٤.
٣٥. معجم ديانات وأساطير العالم. المجلد الثالث، ص ١٠.
٣٦. في العقائد والأديان -د.محمد جابر عبـــد العـــالي، ١٩٧١، ص ١٢٠-١٢١.
٣٧. قصة الحضارة -المجلد الثالث ص ٤١.
٣٨. حكمة الأديان -ص ١٤٨-١٤٩.
٣٩. موسوعة الأديان في العالم -الجزء الرابع، ص ٢٧٨-٢٧٩.
٤٠. روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، ص ٣٧٨.
٤١. الصابئون في حاضرهم وماضيهم، ص ٤٣-٤٤.
٤٢. موسوعة الأديان في العالم -الجزء الرابع، ص٢٧٩.
٤٣. سلام مع الله -د.بلي جراهام، ترجمة: نجيب جرجور، مطبعـــة النيـــل، بيروت، ١٩٥٣، ص ٦٥-٦٦.

٤٤. التلمود -شريعة بني إسرائيل، ترجمة: محمد صبري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ص ٩.
٤٥. جذور الديانة المندائية، ص ١٦-١٧.
٤٦. ترجمة القرآن الكريم -عبد الله يوسف علي، دار المنار، القاهرة، ص٣٤٠.
٤٧. جامع البيان في تفسير القرآن -بن جرير الطبري، دار البيان للتراث - مصر، الطبعة الثانية، ١٩٥٤، ص ١٥٢.
٤٨. التفسير الكبير -الفخر الرازي، دار الكتب العلمية، طهران، الطبعة الثانية، المجلد الأول، الجزء الأول، ص ٥٨.
٤٩. تاريخ البشرية -ارنولد تويبني، تعريب: نقولا زيادة -الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٠، ص ٢٨١.
٥٠. الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور -جورج كونتينو، ترجمة: سليم طه التكريتي، برهان عبد التكريتي -دار الشؤون الثقافية، بغداد، الطبعة الثانية ١٩٨٧، ص ٤٤٧-٤٤٨.
٥١. موسوعة الأديان في العالم -المجلد الثاني ص ٩٤.
٥٢. حكمة الأديان الحية -ص ١٢٠.
٥٣. في العقائد والأديان، ص ١٢٩٠-٣٠.
٥٤. القرآن -محاولة لدراسة عصرية- مصطفى محمود، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٠، ص ٨٤، ١٠٩.
٥٥. ديمقراطية القومية العربية -د.محمد عبد الله العربي، الطبعة الثاني، القاهرة، ١٩٦٤، ص ١٦٨.
٥٦. موسوعة الأديان في العالم -الجزء الرابع، ص ٢٨٠-٢٨١.
٥٧. جذور الديانة المندائية -ص ٢٨-٢٩.

٥٨. الصابئون في ماضيهم وحاضرهم -ص ٤٥-٤٦.
٥٩. في العقائد والأديان -ص ٤٩-٥٠.
٦٠. قصة الحضارة -الجزء الثاني من المجلد الرابع -ص٦٨-٦٩.
٦١. استقيت النصوص من المصادر التالية :
١-القرآن الكريم.
٢-الكتاب المقدس.
٣-المعجم المفهرس لألفاظ القرآن.
٤-مختصر صحيح مسلم -سبقت الإشارة إليه.
٥-مفاهيم صابئية مندائية -سبقت الإشارة إليه.
٦-ترانيم زرادشت -سبقت الإشارة إليه.
٧-حكمة الأديان الحية -سبقت الإشارة إليه.
٨-موسوعة الأديان في العالم -سبقت الإشارة إليه.
٦٢. مختصر صحيح مسلم، ص ٧٤.
٦٣. تفسير الجلالين، ص ٥٦١.
٦٤. عثمان بن عفان -ذو النورين- عباس محمود العقاد -دار الهلال-(٥١) القاهرة، ص ٤٧.
٦٥. السيرة النبوية -ابن هشام- تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، سعيد عبد الحفيظ شلبي، دار الكنوز الأدبية (تراث الإسلام)، المجلد الأول، القسم الأول، ص ٣٦٤.
٦٦. موسوعة الأديان في العالم -الجزء الرابع، ص ٢٨٢-٢٨٣.
٦٧. قصة الحضارة -الجزء الثاني من المجلد الرابع، الصفحات ٥١-٥٢،٥٥-٦٩
٦٨. المسيحية والحضارة العربية -ص ١٧-٢٢.

٦٩. المسيحية والحضارة العربية – ص ١٧.
٧٠. السيرة النبوية / ابن هشام ، ج٢ ، ص٥٤٤.
٧١. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام. الامام عبد الرحمن الخثعمي السهيلي- دار الكتب العلمية- بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧، ص١٩٥-١٩٦.
٧٢. السيرة النبوية / ابن هشام – القسم الأول – الجزء الأول – ص٢١، الجزء الثاني ، ص٥٤٤.
٧٣. جواهر البخاري وشرح القسطلاني- مصطفى محمد عمارة- مطبعة بابل- بغداد – ط١ ، ١٩٨٣ ، ص٣٥٤ .
٧٤. جواهر البخاري ، ص٣٤٦-٣٤٧.
٧٥. من وصايا الرسول (ص) – شرح وتعليق طه عبد الله العفيفي- دار الاعتصام – القاهرة – الجزء الأول : ص٣١، الجزء الثالث: ص٤١٧-٤١٩.
٧٦. جواهر البخاري – ص٣٤٩-٣٥٠.
٧٧. موسوعة الأديان ج٢ – ص٢٢٠.
٧٨. "المسيحيون العرب" -مؤسسة الأبحاث العربية- الطبعة الأولى ١٩٨١ - من بحث د.رضوان السيد (المسيحيون في الفقه الإسلامي) ص ٩١.
٧٩. "المسيحيون العرب" من بحث (المسيحية العربية والغرب) -المطران جورج خضر -ص ٨٤-٩٠.
٨٠. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح -ابن تيمية، مطابع المجد، الجزء الأول، ص ١٩٥-١٩٦.
٨١. البداية والنهاية / ابن كثير. المجلد الثاني – الجزء الثالث – ص٣.
٨٢. موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع – ص٢٢٦.

٨٣. موسوعة الأديان في العالم – الجزء الرابع ص٢٦٨.
٨٤. تفسير أبي السعود- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم- دار الفكر- بيروت ، ص٥٧٢.
٨٥. تاريخ الهل والهلول – الطبري – سلسلة ذخائر العرب (٣) دار المعارف بمصر – ١٩٦١، المجلد الأول ، ص٤٣٤.
٨٦. السيرة النبوية – ابن هشام – الجزء الأول ، ص٤٦٠-٤٦١.
٨٧. دور العرب في تكوين الفكر الأوربي – عبد الرحمن بدوي- الطبعة الثالثة، ص٤٩-٥٠، ٥٤-٥٥.
٨٨. مختصر صحيح مسلم – شرح النووي- دار الكتب العلمية- الجزء الثاني، ص٢١٣.
٨٩. مختصر صحيح مسلم بشرح النووي- دار الكتب العلمية- بيروت- المجلد الثاني – ص٢١٣-٢١٤.
٩٠. تفسير الطبري – بن جرير- مؤسسة الرسالة – بيروت – الطبعة الأولى ١٩٩٤- المجلد الرابع ، ص٥٦.
٩١. استقيت البيانات عن الأنبياء من المصدرين :
أ) مختصر صحيح البخاري – التجريد الصريح – الأحاديث الجامع الصحيح – أحمد عبد اللطيف الايدي – دار النفائس- بيروت – الطبعة الأولى١٩٨٥، الجزء الأول – ص٣١٤-٣٢٥.
ب) مختصر صحيح مسلم – للحافظ المنذري- الدار الكويتية – الطبعة الأولى ١٩٦٩، ص١٨٥-١٨٩.
٩٢. دلائل النبوة – البيهقي – دار الكتب العلمية – بيروت- الطبعة الأولى ١٩٦٩، ص١٨٥-١٨٩.

٩٣. تفسير التحرير والتنوير – الشيخ محمد الطاهر بـــن عاشــور – الــدار التونسية للنشر ١٩٨٤، الجزء السادس ، ص٦-٩.

٩٤. الاعلام – خير الدين الزركلي- دار العلم للملايين- بــيروت – الطبعــة الأولى ١٩٩٤، الجزء الرابع: ص٢٢٧.

٩٥. مختصر صحيح مسلم- للحافظ المنذري – الجـــزء الثــاني، ص١٨٥- ١٨٩.

٩٦. صحيفة اللواء – العدد : ١٤٤٣- في ٢١/٢/ ٢٠٠١، ص٢٥.

٩٧. قصة الحضارة – الجزء (١٤) – ص٧٢-٧٣.

٩٨. ما هي القوميـــة – ساطع الحصري- دار العلــم للملاييــن- بــيروت- الطبعة الأولى ، ص٢٤٦.

****

فهرس